Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 4 | No. 7 | Page 510 – 543 |2025 |
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

Learning Arabic in the Early Arab-Islamic Civilization In the Social Factors Behind the Emergence of Linguistics and Grammar Among the Arabs

Khaled Abdulhaleem Alabsi[1,*]
[1]Department of Arabic - Faculty of Languages - Sana'a University, Sana'a, Yemen.
***Corresponding author:** *kha0123@hotmail.comm*

Keywords

1. learning Arabic
2. Standard Arabic (fus-haa)
3. Arabs
4. non-Arab (mawālī)
5. emerging generation

Abstract:

This research explores the phenomenon of learning Arabic in in early Arab-Islamic civilization, analyzing its social motivations. The study concludes that the learning of Arabic was a widespread social phenomenon. The reasons for studying Arabic included its national significance, as it held a distinguished place in the religious identity of Muslims; its religious importance, given its intrinsic connection to the Qur'an and all Islamic sciences; its scholarly necessity, as it served as the linguistic foundation for both religious and secular knowledge among the Arabs, with no intellectual discipline existing independently of it; and its social prestige, since mastery of refined Arabic (al-'arabiyya al-mu'arraba) functioned as a marker of class distinction, separating the elite from the rest of society. Additionally, proficiency in Arabic offered professional opportunities, enabling individuals to earn a living as tutors (ta'dīb), scribes (kitāba), and later as copyists (warrāqa). Furthermore, its standardized nature—not being the natural dialect of any single group but rather a rich synthesis of various Arab dialects—necessitated formal study for all, including Bedouins. The study also reveals that the learning of Arabic became widespread among mawālī, Arabs, and the rising generation. Scholars responded to this intellectual demand by composing works for general learners, addressing linguistic errors and corrections, as well as developing pedagogical grammatical texts for students.

Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 4 | No. 7 | Page 511 – 543 | 2025
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

دوافع تعلُّم العربيةِ في بواكير الحضارة العربية الإسلامية بحث في العامل الاجتماعي لنشأة علوم اللغة والنحو عند العرب

خالد عبد الحليم العبسي[1]*،

[1]قسم اللغة العربية ، كلية اللغات - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن.

***المؤلف:** kha0123@hotmail.com*

الكلمات المفتاحية

1. تعلّم العربية
2. المكانة القومية
3. الأهمية الدينية
4. التقدير الاجتماعي
5. الطبيعة المعيارية

الملخص:

يتناول هذا البحث ظاهرة تعلّم العربية في بواكير الحضارة العربية الإسلامية، ويهدف إلى بيان دوافع تعلّم العربية في تلك الحقبة المبكّرة بين أفراد المجتمع على نحو متوسّع، وكانت أهم نتائج البحث أن تعلّم العربية ظاهرة اجتماعية عريضة أقبل عليها فئات اجتماعية مختلفة، فأسباب تعلّم العربية: مكانتُها القومية، وذلك لاحتلال العربية مكانة مميزة في الهوية الدينية عند المسلم من العرب والموالي، وأهميتُها الدينية، فقد ارتبطت المعرفة اللغوية بالقرآن وعلوم الدين كافة، وضرورتُها العلمية، فهي المادة اللغوية للعلوم عند العرب، ولا وجود للعلوم الدينية والدنيوية إلا بها، وتقديرُها الاجتماعي؛ إذ كانت العربية المعرَبة فارقا طبقيا بين نخبة المجتمع ومَن دونهم، وفُرَصُها المهنية، فقد منحت المعرفة اللغوية أصحابها فرصة التكسّب بالتأديب والكتابة ثم الوراقة، وطبيعتُها المعيارية، وذلك أن المستوى المعياري لم يكن لغة سليقة لأحد، كما أنه كان مستوى غنيّا يجمع بين لهجات العرب، وذلك يُلزم الجميع بالتعلّم، حتى الأعرابي المحتجّ بلغته.

المقدمة:

إن نزول القرآن بالعربية وتلبّس الإسلام بتلك اللغة، وقيام الدولة العربية الإسلامية، وتوسّع تلك الدولة ليدخل في نطاقها أمم غير عربية، ودخول أقوام من تلك الأمم في دين الإسلام، ونشوء حركة علمية عريضة تشمل عددا من العلوم الدينية والدنيوية كانت العربية حاملة لها، واتخاذ دولة الإسلامِ العربيةَ لغةً رسمية في مختلف الدواوين، كلّ ذلك قد وثب بلغة العرب إلى مرحلة لا سابق لها، وفيها اكتسبت العربية أهمية من جوانب عدّة، ونشأت ظاهرة عريضة لتعلّم العربية وذلك لمكانتها القومية ولأهميتها الدينية ولضرورتها العلمية ولتقديرها الاجتماعي ولفُرصها المهنية ولطبيعتها المعيارية.

وإن الأسباب المذكورة الدافعة إلى تعلّم العربية ليست منفصلة، لا في مستواها المجرد، ولا على الواقع، فعلى سبيل المثال المكانة القومية تتداخل مع الأهمية الدينية، كما تتداخل الأهمية الدينية مع ضرورتها العلمية؛ إذ إن جزءا كبيرا من تلك العلوم هي دينية بالأصل، وكذلك الفرد في أرض الواقع يُقبل على تعلّم العربية لأكثر من سبب، غير أن الفصل بين الأسباب وتعدادها هو ما يقتضيه عرض الموضوع.

مشكلة البحث:

يُذكر العامل الاجتماعي في البحث المعاصر من بين العوامل التي دفعت إلى تعلّم العربية، وعادة ما يهيمن أمران بينهما تلازم على تفسير العامل الاجتماعي في ذلك العصر المبكر، أولهما انتشار اللحن، ويُجعل سببا مركزيا لظاهرة تعلّم العربية، وثانيهما حاجة دراسة الموالي الداخلين في الإسلام إلى دراسة العربية، غير أن الإجابة عن الأسباب التي دفعت أبناء المجتمع إلى تعلّم العربية على نحو موسّع –ظلّت غائبة، ولم يُكشف عن جميع أبعادها المختلفة.

منهج البحث:

استعملت في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي مع التحليل الاجتماعي للظاهرة المدروسة في سياقها التاريخي، وذلك من أجل البحث في ظاهرة تعلّم العربية ودوافعها الاجتماعية المتعددة.

الدراسات السابقة:

تناول عدد من الباحثين المعاصرين عوامل نشأة البحث اللغوي والنحوي عند العرب، وذُكر منها العامل الاجتماعي، وتطرّقوا في ذلك إلى أسباب إقبال المجتمع على تعلم العربية، ومنهم:

1- حسن عون، **اللغة والنحو- دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة**، مطبعة رويال، الإسكندرية، 1952م، ط1.

2- فتحي الدجني، **أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي**، وكالة المطبوعات، الكويت، 1974م، ط1.

3- علي النجدي ناصف، **تاريخ النحو**، دار المعارف، القاهرة، 1978م، (د.ط).

4- محمد خير الحلواني، **المفصل في تاريخ النحو العربي قبل سيبويه**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م، ط1.

5- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، دار الفكر، بيروت، 1987م، ط1.

6- أحمد جميل شامي، **النحو العربي: قضاياه ومراحل تطوره**، دار الحضارة – مؤسّسة عز الدين، بيروت، 1997م، (د.ط).
7- عبد الكريم محمد الأسعد، **الوسيط في تاريخ النحو العربي**، دار الشوّاف، الرياض، 1992م، ط1.
8- صباح بافضل، **رؤية جديدة في نشأة النحو العربي**، مكتبة التوبة، الرياض، 1996م، ط1.
9- تمام حسان، **الأصول، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب**، عالم الكتب، القاهرة، 2000م، (د.ط).
10- علي أبو المكارم، **مدخل إلى تاريخ النحو العربي**، دار غريب، القاهرة، 2007م، (د.ط).

ونرى أن الطابع العام على تلك الدراسات المعاصرة يتمثل في الآتي:

أولا: لم يُعط "العامل الاجتماعي" حقّه من الدراسة وتتبّع صلاته في المجتمع بتوسّع للإحاطة بأوجهه كافة وفهم الظاهرة على نحو معمّق يليق بأهميتها، فثمة دراسات تناولت هذه القضية باتخاذ مصطلح "العوامل" أو "البواعث" ونحوها مما يليق بأهمية واقعة ثقافية كبرى "نشأة علوم اللغة عند العرب"، غير أنها لم تُحط بجميع أبعاد العامل الاجتماعي، وظلّ انتشار اللحن وحاجة الموالي إلى تعلّم العربية ما يهمين على تفسير العامل الاجتماعي، وأوسعُ ما وقع في تناول العامل الاجتماعي كان عند الدجني، فقد تكلم فيه في سبع صفحات تقريبا (ص: 46-52).

ثانيا: الطابع العام لتلك الدراسات يتمثل في التركيز على الموالي واللحن (فساد اللغة) مع إغفال الصلات الاجتماعية الأخرى، وهذا فيه إساءة فهم لظاهرة اجتماعية عريضة مثل تعلّم العربية في العصر المبكّر؛ إذ الغائب في هذا التصور التفسيري أكثر من الحاضر، وهو تصوّر لا يعين على فهم تلك الواقعة الثقافية إلا على نحو منقوص جدّا، والسببُ الأساس لذلك القصور متابعة التصوّر التقليدي لظروف نشأة البحث اللغوي كما ظهر عند القدماء، وأبرزهم المؤلفون في كتب الطبقات النحوية الذين ارتبطت عندهم نشأة النحو بحوادث اللحن الجزئية والواضع الفرد، وهو ما أدّى إلى ترسيخ وهم "البطل الثقافي" والأسطورة الدؤلية (نسبة للدؤلي).

ثالثا: إن التصور التفسيري القاصر (ربط النشأة بالموالي واللحن) له لوازم إشكالية أخرى، فربطُ تولّد المعرفة اللغوية بالموالي واللحن يلزم منه لازمان غير صحيحين في طبيعة تلك النشأة، وبلغة الجدل التراثي "لازمان فاسدان"؛ فأما اللازم الأول فربط النشأة بالموالي، ويلزم منه أن المعرفة اللغوية والنحوية موجّهة –على نحو أساس– إلى غير العرب، أي الموالي المتحدّثين بلغات أخرى، والواقع أن البحث اللغوي توجّه إلى العرب بالمفهوم الواسع، أي العروبة بنوعيها: العروبة العرقية (مثل عروبة الخليل)، والعروبة الثقافية المكتسبة (مثل عروبة سيبويه)، والنوع الأخير مفهوم كان له حضوره الاجتماعي آنذاك، ولكن الموالي بمعنى غير المتحدثين بالعربية لم يكن هناك اتجاه لغوي خاص بهم، وأما اللازم الثاني فربط النشأة باللحن، ويلزم منه أن المعرفة اللغوية والنحوية ذات طبيعة تعليمية، والواقع أن المعرفة

اللغوية جمعت بين الأسباب التعليمية والعلمية، بل العلمية أكثر حضورا، وهذا قد نتناوله في بحث آخر.

ونذكر أخيرا أن مشكلة التركيز على اللحن والموالي أظهرُ في دراسات لم تتخذ مصطلح "العوامل" أو نحوها للكشف عن واقعة ثقافية بحجم "نشأة علوم اللغة عند العرب"، فتلك المصطلحات هي الأحرى ببيان مدى تشعّب تلك الواقعة في المجتمع ودوافعها المتعدّدة، وإنما رُبطت تلك الدراساتُ النشأةَ باللحن تحت عنوانات أخرى، مثل: "نشأة النحو" (الأسعد)، أو "واضع النحو" (ناصف)، أو "توطئة تاريخية" لما بعث على تدوين اللغة (الأفغاني)، وأحسن حالا من هذا النوع الأخير دراسات ذكرت عوامل تلك الواقعة المهمة، لكنها لم تذكر العامل الاجتماعي، وذكرت اللحن في العامل الديني (حسّان)، وليست المشكلة الأساس هنا ذكرُ اللحن تحت هذا العامل أو ذلك، فاللحن له بُعدان ديني واجتماعي، ولكن المشكلة في إغفال "العامل الاجتماعي" بجوانبه المتعددة والممتدة في المجتمع.

أهداف البحث:

يروم هذا البحث بلوغ الأهداف الآتية:

1- بيان الإقبال على تعلّم العربية لمكانتها القومية.
2- بيان الإقبال على تعلّم العربية لأهميتها الدينية.
3- بيان الإقبال على تعلّم العربية لضرورتها العِلمية.
4- بيان الإقبال على تعلّم العربية لتقديرها الاجتماعي.
5- بيان الإقبال على تعلّم العربية لفُرصها المهنية.
6- بيان الإقبال على تعلّم العربية لطبيعتها المعيارية.

دوافع تعلُّم العربيةِ في بواكير الحضارة العربية الإسلامية

أولا: الإقبال على تعلّم العربية لمكانتها القومية:

كان الإسلام حدثا بالغ الشأن في بلاد العرب وتغييرا جذريّا، فقد تبدّلت طبيعة المجتمع بتبدّل الصلات المكوّنة له. وكانت قرابةُ الدمِ في الجاهلية السرديةَ المؤسّسة لوحدات اجتماعية صغرى "القبائل"، وبعد الإسلام صار الإيمان الديني سرديّة جديدة تُكوِّن الوحدة الاجتماعية الكبرى "الأمّة"، وكانت أول مرّة يتوحّد فيها عرب الجزيرة شمالًا وجنوبًا، بدوًا وحضرًا، ثم اتسعت الجماعة المؤمنة بإسلام أناس مِن أجناس أخرى متعددة، وصار ذلك التنوّع أكثر تحقيقا لمفهوم الأمة، وكان من مثاليات تلك الأمّة أن يلتقي فيها العربي والعجمي على رباط "الأخوة الدينية" ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:10]، ومعيار التفاضل فيها تقوى الله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13].

إن التوسّع الجغرافي للإسلام كان متضمّنا لتمدّد لغةِ كتابِه ولغةِ حَمَلته (العربية)، وقد وُصف ذلك التمدّد بأنه "فتوحات لغوية" إلى جانب "الفتوحات العسكرية"[1]، وقد وقع ذلك بسرعة مذهلة[2]، وكان انتشار العربية بطابع اختياري لا بغلبة السلطان[3]، ولم

[1] – يُنظر: ريسلر، الحضارة العربية: 51-54.

[2] – يُنظر: ماكنتوش-سميث، عرب: 23.

[3] – يُنظر: بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية: 45-46.

يكن هناك سياسة لغوية محددة بشكل منهجي من الفئة الحاكمة[4]، واضطلعت العربية بدور ثقافي محوري، وأسهمت في إزالة الحواجز بين العربي وغير العربي، وذلك على غرار ما فعلته اللغة اليونانية في الحضارة الهيلينستية من تذليل الفوارق بين اليوناني الهيليني والبربري[5]، وذلك أضعف القوميات المتعدّدة لصالح القومية الجامعة العربية[6]، فتوحّد بذلك عدد هائل من ساكنة المعمورة في "أمة لغوية" واحدة، حتى إن غير المسلمين تكلّموا بلسان العرب[7].

وإذا كان الإسلام هو الإطار الواضع لحدود القومية الجديدة، فإن العربية كانت قضية مركزية في تلك القومية الجامعة للعرب والعجم، وإن التأسيس لمكانة العربية قد بدأ في النص الأول لتلك الأمة: القرآن، وذلك في أمور، الأول: أن العروبة في القرآن لم تُذكر إلا معبّرة عن "لغة"[8]، فاستحوذت "العروبة اللسانية" على الحضور الكلي في القرآن، وذلك في مقابل غياب كلي للعروبة العِرقية، الثاني: أن كلّ ذكرٍ للسان العربي في القرآن كان مقتصرا على بيان أنه لغة القرآن وبيان طبيعة القرآن اللغوية، وقد اقترن ذلك بإنزال القرآن ووصفه بالبيان والتفصيل والتيسير وبُعده عن الاعوجاج والدعوة إلى تعقّله[9]، الثالث: أن اللغة العربية لم ترد في القرآن مضافة إلا إلى الرسول نفسه، وقد كان ذلك في موضعين: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم:97]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان:58]، وفي الأمور الثلاثة السابقة تثبيتٌ لمفهوم أساس في الهوية الجديدة، وهو أن العربية لغة الكتاب والدين، أي اللغة الوسيطة بين الإله والعباد، ولغة رسول من عند الله، أي لغة الوسيط بين الإله والعباد.

وكل ما مضى كان له انعكاسه على الواقع، وإعادة بناء الهوية بالنسبة للأقوام الداخلة في الإسلام، ولا سيما مكانة العربية في تلك الهوية، فلم تعد العربية للمسلم –من غير العرب– لغة آخر، وشيئا أجنبيا لا يمثله، بل التحم الدين واللغة، وجُعلت العربية مرادفة للإسلام[10]، وانفتح معنى العروبة من الحدّ العرقي إلى معنى أرحب: العروبة اللسانية والثقافية، يبيّنه أنه أصبح يُطلق على أقوام أسلمت بأنهم "صاروا عربا"، ومنه أن أهل سمرقند وما حولها دخلوا الإسلام، فوُضعت عنهم الجزية، فكُتب إلى أشرس السلمي عاملِ هشام بن عبد الملك أن الخراج قد انكسر، فصيّرِ الخراجَ إلى آخر، وجاء دهاقين بخارى إلى أشرس فقالوا: "ممن تأخذ الخراج، وقد صار الناسُ كلهم عربا"[11]؟! أي صاروا مسلمين،

---

[4] – يُنظر: خالدوف، اللغة العربية: 44.

[5] – يُنظر: سعدييف وسلوم، الفلسفة العربية الإسلامية: 17.

[6] – يُنظر: هِل، الحضارة العربية: 78.

[7] – يُنظر: بلوم، قصة الورق: 192.

[8] – يُنظر: الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: 19، 37، فرستيغ، اللغة العربية: 53.

[9] – ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [طه:113]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:193–195]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:3]، ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:103]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم:97]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:58]، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:28]، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:3]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنا عَرَبِيّا﴾ [الأنعام:7]، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف:12]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: 37].

[10] – يُنظر: هِل، الحضارة العربية: 78، الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: 51.

[11] – الطبري، تاريخ الطبري: 55/7.

ونحوه أن الحجّاج قال عندما ورد الكوفة: "لا يؤمنّكم إلا عربي"، فنحّوا يحيى بن وثّاب، وهو مولى مِن القرّاء، فبلغ الحجّاج ذلك، فقال: "ويحكم! إنما قلت: عربيّ اللسان"[12]، ومن هذا الباب أنّ أبا جعفر المنصور سأل رياحا مولى هشام بن عبد الملك: أعربيّ أم مولى؟ فأجابه: "إن كانت العربية لسانا، فقد نطقنا بها، وإن كانت دينا، فقد دخلنا فيه"، وجواب رياح بن أبي عمارة –الذي كان قائما على خاتم الوليد بن يزيد– فيه من الفصاحة ما استبرعها المنصور[13]، ويرقى إلى ضرب الأجوبة المُسكِتة، وجاء عن موالٍ وعربٍ تسمية العربية بأنها "لغة النبي"، و"لغة الرسول"، فحسُن أن تُتعلّم ووجب أن تُصان، مرّ الحسن البصري بقوم يتعلّمون العربية، فقال: "أحسنوا يتعلّمون لغة نبيهم"[14]، يُروى جدل بين رجل وأحد أعلام النحو، يقول الرجل: "أتتهمني في دين الله"؟! فيردّ أبو زيد الأنصاري: "أتهمك في لغة رسول الله"[15].

ومما يدلّ على مكانة العربية لدى المسلمين الجُدد أنه عندما نشب الصراع مع الشعوبية، وهاجم الشعوبيون ثقافة العرب واللغة العربية، اختار عدد من العلماء الموالي الوقوف في الصف العروبي، بل كانوا من أعلام الصفّ، ودافعوا عن العربية وألّفوا في ذلك، ومنهم الجاحظ (على الراجح في نسبه)[16]، بل يكاد يكون الرد على الشعوبية أحد أهم دوافع التأليف عنده، وابن قتيبة صاحب كتاب "فضل العرب على العجم والتنبيه على علومها"، وابن درستويه صاحب "رسالة إلى نجيح الطولوني في تفضيل العربية"[17]، وصاحب "نقض كتاب ابن الراوندي على النحويين"[18]، وله كتاب "إبطال الأضداد"[19]، وهي من قضايا الجدل مع الشعوبية، وأبو بكر ابن الأنباري الذي ألّف كتاب "الأضداد" وصرّح بأوصاف الشعوبية في مقدّمته[20]، ورد على مقولات الشعوبية ومطاعنها في العربية في مقدمة كتابه "إيضاح الوقف والابتداء".

ومما يدلّ أيضا على مكانة العربية لدى الموالي أنّ الأيديولوجيا اللغوية التي شاعت في الثقافة العربية حول مكانة العربية، قد ظهرت نصوصها على ألسنة علماء اللغة والنحو عامّة من العربِ صليبةً والعربِ ولاءً، أي العرب بالمعنى العرقي والمعنى الثقافي[21]، وقد تضمّنت تلك الأيديولوجيا وصف العربية بأنها اللغة التي اصطفاها الله لخاتمة رسالاته، وهي أفصح اللغات وأوسعها وأشرفها، وقد انسلّت منها مقولة "حكمة العربية"[22]، وفحواها أن العربية لغة حكيمة تامّة بعيدة عن الانحراف والشذوذ، بل إن تلك الأيديولوجيا جعلت من مهام النحوي "أن يبني أدق التفاصيل في البنية اللغوية، وأن يثبت أن هذه اللغة منظومة يستقر فيها كل عنصر في مكانه الصحيح، وأن كل ظاهرة فيها قابلة للتفسير"[23].

[12] – البلاذري، أنساب الأشراف: 200/11.

[13] – يُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: 148/4–149، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 272/18.

[14] – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 29/1، ابن النحاس، صناعة الكُتاب: 30.

[15] – المقرئ، أخبار النحويين: 43، بتصرف.

[16] – يُنظر: بلّا، الجاحظ: 93 وما بعدها، وكاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية: 148.

[17] – يُنظر: النديم، الفهرست: 94.

[18] – يُنظر: النديم، الفهرست: 94، القفطي، إنباه الرواة: 114/2، السيوطي، البلغة: 168.

[19] – يُنظر: ابن درستويه، تصحيح الفصيح وشرحه: 185، 543.

[20] – يُنظر: ابن الأنباري، الأضداد: 1.

[21] – تناولت الكلام بالتفصيل على نزعة التمجيد اللغوي ونصوصها في كتاب "مبدأ الانتظامية في النحو العربي".

[22] – وأقدم ظهور لهذه المقولة منسوب إلى الخليل، يُنظر: الزجاجي، الإيضاح في علل النحو: 65–66.

[23] – فرستيغ، أعلام الفكر اللغوي: 73/3.

وإذا كانت تلك هي مكانة العربية عند الموالي الحائزين عليها بواسطة الدين، فمكانتها عند العرب الذين حازوها حيازة أولية أحكم، والتحامهم بها التحام وجودي، فالعربي هو المالك الأول لتلك اللغة، وله منها سببان: قومي وديني، ومن الحقّ أنّ كل سمة مدحٍ قيلت في العربية لغةً كان لها نصيب من إطراء الروح العربية، والعربي –المولع بالفخر– لم يفته تمجيدها والتباهي بها، فقد مثّلت له العبقرية العرقية[24]، وارتضى العربي أن يرى لغته ميزةً من بين ما تتميّز به كلّ أمة "نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين"[25]، وأمام الموالي نسب العربي إلى نفسه مسؤولية تعليمهم إياها[26].

ثانيا: الإقبال على تعلّم العربية لمكانتها الدينية:

إن التواشج بين الإسلام والعربية رفعَ تلك اللغة إلى مكانة سامية مبجّلة، وصارت العربية خطْبا مقدّسا على غير مثال سابق، وأقدم مَن نرى عندهم ما يدل على تلك المكانة هم الصحابة، فصحابيّ يجتنب اللاحنَ كأنه رَجُل آثام، نُقل أنه "كان رجل إلى جنب ابن عمر فلحن، فأرسل إليه: إما أن تنحّى عنا، وإما أن نتنحّى عنك"[27]، وصحابةٌ يضربون أولادهم على اللحن وكأنّها الصلاة التي يُضرب ابنُ العشر على تركها، وأكثر الروايات في ذلك عن ابن عمر، وأنه كان يضرب ولده على اللحن[28]، كما رووا "أن علي بن أبي طالب كان يضرب الحسن والحسين على اللحن"[29]، ومثلهما عن ابن عباس[30].

وتتنامى مكانة العربية في العهد التالي لذلك، فنجد عند التابعين تفاصيل جديدة لتقديس العربية، وهذه المكانة المقدسة صيّرت الخطأ اللغوي ذنبا يُستغفر منه، فقد نُقل أن أيوب السختياني لحن في حرف، فقال: "أستغفر الله"[31]، ورُوي عن الحسن البصري مثلُه أيضا، وزيد بيانُه لسبب الاستغفار؛ إذ كان "يعثر لسانه بشيء من اللحن فيقول: أستغفر الله، فقيل له فيه، فقال: مَن أخطأ فيها فقد كذب على العرب، ومن كذب فقد عمل سوءا، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 110]"[32]، ورأى بعضهم أن اللحنَ قد يكون حجابا دون دعاء العبد، فقال: "ربما دعوتُ فلحنتُ، فأخاف أن لا يُستجاب لي"[33]، فكأنّ في اللحن سوء أدب في الخطاب مع الله، وعاقبته عدم الإجابة، ولبيان فضيلة اللغة القويمة في الدنيا والآخرة، قارنوا بين رجلين استويا من كل وجه غير أن أحدهما مُعرِب والآخر غير مُعرِب، قال ابن هبيرة (أمير العراقين): "والله ما استوى رجلان دينهما واحد، وحسبهما واحد، ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن، إن أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن"[34].

---

[24] – يُنظر: ماكنتوش–سميث، عرب: 21.

[25] – التوحيدي، المقابسات: 260، وقد تكرّر ذكر مثل ذلك عند الجاحظ، يُنظر مثلا: الجاحظ، الرسائل: 67/1، وما بعدها، 214/3 وما بعدها.

[26] – يُنظر: السيرافي، أخبار النحويين البصريين: 15، الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 22.

[27] – المقرئ، أخبار النحويين: 30.

[28] – يُنظر: معمر، الجامع: 462/11، عبد الرزاق، المصنف: 262/9، ابن أبي شيبة، المصنف: 226/14، 391/16، البخاري، الأدب المفرد: 304، البلاذري، أنساب الأشراف: 448/10، ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 24/1–25، المقرئ، أخبار النحويين: 37، ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله: 457/1.

[29] – البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: 28/2.

[30] – يُنظر: المقرئ، أخبار النحويين: 37.

[31] – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 33/1، المقرئ، أخبار النحويين: 49.

[32] – ياقوت، معجم الأدباء: 17/1.

[33] – الزجاجي، الإيضاح في علل النحو: 96.

[34] – ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 380/45.

إن التداخل بين الإسلام والعربية أضفى عليها صفات استثنائية من بين لغات العالمين، فكانت لغة الملأ الأعلى، قال مقاتل بن سليمان: "كلام أهل السماء العربية"، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:1-4] [35]، وكان بعض السلف يقول في العربية: "هي كلام الله -عز وجل- وأنبيائه وملائكته"[36]، ومن الآثار التي نُقلت في ذلك قول ابن عباس: "ما أنزل الله تعالى كتابا إلا بالعربية، ثم تُرجم لكل نبيّ على لسان أمته"[37]، وهذا تصور يُعطي العربية مكانة قدسية لا مزيد عليها، فهي لغة الإله الأولى، وكل كتاب يُخاطب به الناس -على اختلافهم- يكون أولا بالعربية ثم يُترجم إلى لغتهم، ووُصفت بأنها كلام جيران الله في دار الخلد[38]، وبأنها "لسان أهل الجنة"[39]، فكأن زيف الدنيا وحقيقة الآخرة يقابله زيف لغات الدنيا وحقيقة لغة الآخرة، وذُكر أن لغة آدم كانت في الجنة العربية، فلما عصى اللهَ وأُخرج من الجنة، سلبه الله العربية فتكلّم بالسريانية، ثم إنه لما تاب آدم من بعد، ردّ الله عليه العربية[40]، وكأن العودة إلى العربية جزء من العودة إلى الجنة المكان الأول الذي خرج منه آدم، ولا يخفى ما في كل ذلك من تقديس بالغ، وجماع الأمر أن مكانة العربية بين اللغات اكتُسبت من مكانة الإسلام بين الأديان، فلما كان الإسلام ناسخ الأديان كلّها، ويعلو ولا يُعلى عليه، كان للغته نصيب من ذلك.

تلك المكانة الدينية للعربية دفعت إلى تعلّمها، ومما يستحق أن يُلتفت إليه بانتباه هنا أنّ أقدم النصوص في تعلّم العربية ارتبطت بمكانتها من الدين، وتلك الآثار الأقدم تردّدت على ألسنة كبار الصحابة وعلمائهم ذوي الإقراء، فمنها الحثّ على إعراب القرآن، ومنه قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: "لبعضُ إعرابِ القرآن أعجب إلينا من حفظ بعض حروفه"[41]، وقال أبو بكر: "لأن أعرب آية من القرآن أحبّ إليّ من أن أحفظ آية"[42]، ومرّ عمر بقوم يقرئ بعضهم بعضا، فقال لهم: "اقرؤوا ولا تلحنوا"[43]، وقال أيضا: "مَن قرأ القرآن فأعرب كان له عند الله أجر شهيد"[44]، وقال عبد الله بن مسعود: "جرّدوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربي، والله يحبّ أن يُعرب"[45]، وقال أيضا: "أعربوا القرآن، فإنه عربي"[46]، وقال عبد الله بن عمر: "أعربوا القرآن"[47]، ومنها الأمر بتعلّم العربية، كتب عمر إلى أبي موسى: "أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن

[35] – ابن أبي شيبة، المصنف: 329/16، ابن النحاس، صناعة الكُتاب: 30.

[36] – الزجاجي، الإيضاح في علل النحو: 95، بتصرف.

[37] – السابق: 96.

[38] – يُنظر: الفارابي، ديوان الأدب: 71/1-72.

[39] – وقد روي هذا المعنى في أحاديث، وقد ضُعّف ما رُويَ في هذا المعنى جملة. يُنظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 300/4.

[40] – يُنظر: السيوطي، المزهر: 28/1.

[41] – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 20/1، المقرئ، أخبار النحويين: 42.

[42] – القاسم بن سلام، فضائل القرآن: 348، ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 23/1.

[43] – ابن أبي شيبة، المصنف: 392/16، ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 20/1.

[44] – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 20/1، المقرئ، أخبار النحويين: 36.

[45] – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 16/1.

[46] – القاسم بن سلام، فضائل القرآن:212، 348، ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 17/1، البيهقي، شعب الإيمان: 550/3.

[47] – ابن أبي شيبة، المصنف: 390/16.

فإنه عربي"[48]، وجعل عُمر تعلّم العربية من الدين، جاء عنه: "تعلّموا اللحن والفرائض، فإنه من دينكم"[49]، وعنه أيضا: "تعلموا اللحن والفرائض والسنن كما تعلّمون القرآن"[50]، وجاء مثل ذلك عن أُبي بن كعب: "تعلّموا اللحن في القرآن كما تتعلّمونه"[51]، وقال أبيّ بن كعب أيضا: "تعلّموا العربية في القرآن كما تعلمون حفظ القرآن"[52]، وقال أبو ذر: "تعلّموا العربية في القرآن كما تتعلّمون حفظه"[53]، وقال أبو العالية الرياحي: "كنتُ أطوف مع ابن عباس وهو يعلّمني لحن الكلام"[54]، وورود تلك الآثار عن أهل الإقراء من الصحابة، مثل: أُبي وابن مسعود وابن عباس، يوثّق صلة ذلك التعلّم بالقرآن.

ثالثا: الإقبال على تعلّم العربية لضرورتها العلمية:

انتصبت جميع العلوم في الحضارة العربية الإسلامية باللغة العربية، ولم يزل الإسلام يوصف بأنه ثقافة قائمة على النص[55]، فمنها العلوم الدينية، مثل: القراءات والتفسير والحديث والفقه والفرائض والأصول، ومنها العلوم الدنيوية، مثل: الفلك والجغرافيا والحساب والهندسة والكيمياء والطب والصيدلة وغيرها، ولا كينونة للعلوم في تلك الحضارة إلا بوجود أولي للعربية، وذلك عزّز مكانة تلك اللغة.

وكان نتاجا طبيعيا لذلك أن حضّ على تعلّم العربية أعلامٌ من كل علم، فأصحاب القراءات نَهوا عن أخذ القراءة عمّن لا يعرف العربية[56]، وفي التفسير قال مجاهد بن جبر: "لا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلّم في كتاب الله، إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب"[57]، وتهدّد مالك مَن يفسّر كتاب الله غيرَ عالم بلغة العرب بالنكال[58]، وفي مجال علم الحديث قيل: "مَثَلُ الذي يكتب الحديث ولا يعرف النحو مثل الحمار عليه مخلاة ولا شعير فيها"[59]، وذهب محدّثون إلى أن إقامة اللسان ومعرفة اللغة أسبق من طلب الحديث، ومنهم الأعمش[60]، وعبد الرحمن بن الحارث[61]، وفي مجال الفقه نجد أحد الأئمة يبذل وسعه في العربية سنين طوالا، قال ابنُ بنت الشافعي: سمعتُ أبي يقول: "أقام الشافعي على العربية وأيام الناس عشرين سنة، وقال: ما أردتُ بهذا إلا الاستعانة على الفقه"[62]، بل

---

48 – ابن أبي شيبة، المصنف: 389/16، البيهقي، شعب الإيمان: 549/3، باختلاف يسير في اللفظ، ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله: 457/1، من دون زيادة "وأعربوا القرآن فإنه عربي".

49 – ابن أبي شيبة، المصنف: 392/16.

50 – القاسم بن سلام، فضائل القرآن: 349، ابن أبي شيبة، المصنف: 245/17، ولفظُه "والسنة"، ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله: 400/1، وقد اختُلف في معنى "تعلّموا اللحن"، فقيل اللحن هو الخطأ في الكلام؛ لتحترزوا منه، أو لأن من عرف الصواب فقد عرف اللّحن، وقيل اللحن هو اللغة، فالمعنى تعلموا لغة العرب، يُنظر: أبو عبيد، غريب الحديث: 233/2، ابن منظور، لسان العرب: (لحن) 380/13.

51 – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 17/1، المقرئ، أخبار النحويين: 40، ولفظه "كما تعلمون آي القرآن".

52 – ابن أبي شيبة، المصنف: 390/16، ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 23/1، المقرئ، أخبار النحويين: 40.

53 – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 23/1.

54 – أبو عبيد، غريب الحديث: 233/2.

55 – يُنظر: بلوم، قصة الورق: 194.

56 – يُنظر: ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 56/1، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 31/36.

57 – الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 292/1.

58 – السابق: 292/1.

59 – البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: 26/2، ياقوت، معجم الأدباء: 61/1.

60 – يُنظر: البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: 26/2.

61 – يُنظر: السابق: 26/2.

62 – البيهقي، مناقب الشافعي: 42/2، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 298/51.

إن الحصيلة اللغوية الفريدة عند ابن شافع عُدت الفَرجة المهداة لأهل الحديث عامّة، لا سيما أن خصوم أهل الحديث دأبوا على اتهامهم بأنهم لا يفقهون ما يروون، قال أحمد بن حنبل: "ما كان أصحاب الحديث، يعرفون معاني حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى قدم الشافعي فبيّنها لهم"[63]، وقال هلال بن العلاء: "الشافعي أصحاب الحديث عيال عليه فتح لهم الأقفال"[64]، والكسائي يثبت لأبي يوسف محَلّ العربية من الفقه، فيذاكره بمسألة في الطلاق مؤسّسة على اللغة ويغلبه[65].

والمكانة المهمة للعربية بين تلك العلوم ستدعو إلى جعلها من "علوم الآلة"، أي الأدوات الضرورية التي تعين على اكتساب المعرفة والفهم، ومن ألطف ما قيل في مكانة العربية من العلوم: "مَن قصُر علمُه عن اللغة وغُولط، غَلِط"[66]، ومع أن تلك المقولة وردت في خصوص سبب أن المعرفة اللغوية أمانٌ من فِخاخ المجادلات الفقهية، فالحق أن عموم لفظ تلك المقولة أولى بالفهم، وذلك لمكانة العربية من كل العلوم وعدم اختصاصها بالفقه، وكان الشافعي يرى في علم العربية بصيرة استثنائية، وأداة معرفية خاصة، وقال في ذلك: "أصحاب العربية جنّ الإنس، يبصرون ما لا يُبصر غيرهم"[67]، وقريب من هذا المعنى مقولة ابن التوأم: "البيان عماد العلم"[68].

ولأهمية المعرفة اللغوية بالنسبة إلى جميع المعارف عند العرب، لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون أول كتاب عربي مكتمل في الحضارة كتاب نحو، وهو كتاب سيبويه، وقد وصفه شولر بأنه: "أول كتاب بالمفهوم الحقيقي لهذه الكلمة ظهر في العلوم العربية والإسلامية، أي أنه (الكتاب) بامتياز"[69]، ويعني بذلك أنه كتاب وضعه مؤلّف بقصد أن يطلع عليه جمهور من القراء ومبوّب على نحو متسق، وهي عنوانات تتميز بجانب كبير من التقنية، فهو كتاب كامل الشكل والمبنى قُصد به النشر، وهذا على خلاف نوع آخر من الكتب في ذلك العصر، وهي كتابات شخصية كان غرضها الاستعانة على الحفظ وكتابات استُعملت في سياق تعليمي، ثم اشتهر هذان النوعان بأنهما مؤلفات لأصحابها، ولا ينطبق عليهما وصف التأليف الكامل الشكل والمبنى[70]، وقالت غروندلر في بيان مكانة عمل سيبويه من نشأة الكتاب العربي: "في الواقع كان كتاب سيبويه هو الكتاب العربي الثاني بعد القرآن"[71]، كما أن ذلك الكتاب النحوي الأول كان على قدر كبير من الاكتمال العلمي، فسُمي عند القدماء "قرآن النحو"[72]، وعُد مجمل الجهد النحوي بعده شرحا له[73].

63 – البيهقي، مناقب الشافعي: 301/1، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 345/51.

64 – البيهقي، مناقب الشافعي: 278/2، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 301/51، 357.

65 – يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 127، ياقوت، معجم الأدباء: 1741/4، اليغموري، نور القبس: 285.

66 – يُنظر: القفطي، إنباه الرواة: 129/1.

67 – ابن أبي حاتم، آداب الشافعي ومناقبه: 112، البيهقي، مناقب الشافعي: 53/2.

68 – الجاحظ، البيان والتبيين: 77/1.

69 – شولر، الكتابة والشفوية في بدايات الإسلام: 169.

70 – يُنظر: السابق: 25 وما بعدها.

71 – يُنظر: غروندلر، نشأة الكتاب العربية: 29، بتصرف يسير جدا.

72 – يُنظر: أبو الطيب، مراتب النحويين: 73، اليغموري، نور القبس: 58.

73 – يُنظر: فرستيغ، أعلام الفكر اللغوي: 6/3، 68.

رابعا: الإقبال على تعلّم العربية لتقديرها الاجتماعي:

حازت العربية تقديرا اجتماعيا سامقا، وكان لها موقعٌ فصلٌ لا هزل فيه، وتواترت في ذلك الآثار تواترا عن أعيان العرب من قادة وعلماء وحكماء وقضاة وفقهاء، وتفنّنوا في بيان فضيلة استقامة الكلام وبيان قُبح اللحن بما لا يُحصى من الوجوه، فأول شيء من ذلك ربطهم العربية بالمروءة وكمال العقل والرجولة، قال عمر بن الخطاب: "تعلّموا العربية فإنها تثبّت العقل، وتزيد في المروءة"[74]، وقال الزهري: "ما أحدثَ الناسُ مروءة أحبّ إليّ من تعلم النحو"[75]، وقال الشعبي: "حُليُّ الرجالِ العربية، وحُليُّ النساءِ الشحم"[76].

ووثّقوا الوجه السابق بتأكيد نقيضه، فجعلوا اللحن دليلا بيّنا على نقصان العقل، قال قتادة: "لا أسأل عن عقل رجل لم يدلّه عقله على أن يتعلّم مِن العربية ما يُصلح لسانَه"[77]، وصيّروه مُذهِبا للمروءة، قال يونس بن حبيب: "ليس لعَييّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء"[78]، ولم يجعلوا لذي اللحن قدرا، فقيل: "ليس للاحنٍ حُرمة"[79]، بل اشتطّ أمرهم، فلم يتوانوا عن وصف اللاحن بالنذالة، فقد سمع أبو عمرو بن العلاء رجلا يلحن فقال: "ألا أراك نذلًا بعد"[80]؟!

وكان حُسن المنطق فارقا بين الإنسان والدابة والجماد، قال خالد بن صفوان: "ما الإنسان لولا اللِّسان إلا ضالّة، أو بهيمةٌ مرسلة، أو صورة ممثَّلة"[81]، كما كانت آلة ذلك المنطق أشرف أعضاء الإنسان، قال الحسن البصري: "إنّ الله تعالى رفع درجة اللسان، فليس من الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره"[82].

وأبدوا اشمئزازهم من اللحن من غير وجه، فشبّهوه بخبيث الأمراض في أشرف شيء من الإنسان، قال عبد الملك بن مروان: "اللحنُ في الرجل السريّ كالجُدري في الوجه الحسن"[83]، وقيل أيضا: "اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه"[84]، وشاكلوه بما يقبح من الروائح، قال أبو الأسود: "إني لأجد للحن غمَرًا كغَمَر اللّحم"[85]، أي زَهَم اللحم، وماثلَ عمر بن عبد العزيز أثرَ اللحن على أُذُنه بقضم حَبّ الرمان الحامض في فِيه[86].

وعبّروا دائما عن بون شاسع بين منطق معرب ومنطق لاحن، قال عبد الملك بن مروان: "الإعرابُ جمالٌ للوضيعِ، واللحنُ هُجنة على الشريف"[87]، وجعلوا استقامة اللسان هو الزي الحقيقي للرجل، قال ابن شُبْرمة قاضي الكوفة: "إن الرجل ليلحن وعليه الخَزّ الأدكن، فكأنّ عليه أخلاقا، ويعرب وعليه أخلاق، فكأن عليه الخَزّ الأدكن"[88]، وأفسد اللحن -عندهم-

---

74 – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 31/1، البيهقي، شعب الإيمان: 210/4.

75 – ياقوت، معجم الأدباء: 23/1.

76 – السابق: 25/1.

77 – ابن النحاس، صناعة الكُتاب: 30.

78 – الجاحظ، البيان والتبيين: 77/1.

79 – ابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 48/1.

80 – السابق: 45/1.

81 – الجاحظ، الرسائل: 380/1.

82 – السابق: 379/1.

83 – ياقوت، معجم الأدباء: 28/1.

84 – الجاحظ، البيان والتبيين: 216/2.

85 – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 22.

86 – يُنظر: ابن الأنباري، الأضداد: 244-245.

87 – ابن عبد ربه، العقد الفريد: 308/2.

88 – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 13.

ما يتزيّا به الرجل، قال أبان بن عثمان بن عفان: "اللحن في الرجل السَّريّ، كالتغيير في الثوب الجديد"[89]، وسألَ رجلٌ المبردَ عن مسألة وأطال ولحن وتسكّع في الخطأ، فقال المبرد: "يا هذا، ما أنصفتنا من نفسك: إما أن تلبس على قدر كلامك، وإما أن تتكلّم على قدر لباسك"[90].

كان اللحن يقدح في هيبة مقترفه كائنا مَن كان، فعن سعيد بن سلم قال: "دخلتُ على الرشيد، فبهرني هيبةً وجمالا، فلما لحنَ خفّ في عيني" [91] ، وخادشا لهيبة العالم، حتى نرى لغويا لا يصبر على نصيحة إمام في الفقه والدين لتقصيره في أمر اللغة، ومنه حكاية الأصمعي: "دخلتُ على مالك بن أنس، فما هِبت عالما قط هيبتي له، فتكلّم فلحن... فقلت: يا أبا عبد الله، قد بلغتَ من العلم هذا المبلغ، فلو أصلحتَ لسانك"[92]، وإذا كانوا قد ربطوا حُسن اللغة بالرجولة، كما سبق عن الشعبي، فمن الحقّ أنهم لم يحتملوا لحنا من المرأة الحَسيبة، فقد تكلّمت هند بنت أسماء بن خارجة عند الحجّاج فلحنتْ، فقال لها: "أتلحنين وأنتِ شريفة وفي بيت قيس"[93]؟! ولنا أن نتخيّل مشهد والٍ لا يسعه التغاضي عن لحن امرأة؛ لأنها تُنمى إلى الشرف العربي.

فرضت العربية سلطتها، وخلقت رقابة هابها رجالات الدولة، وصاروا على وجلٍ أيّما وجل من الوقوع في سقطةٍ من شناعة اللحن، ولا سيما أمام العامة، فقد سُئل عبد الملك بن مروان عن إسراع البياض إلى رأسه، فقال: "شيّبني ارتقاء المنابر وتوقّع اللحن"[94]، ومثله أن الحجّاج لقي يحيى بن يعمر، فأحبّ أن يعرف إن كان يقترف لحنا، سأل: أتجدني ألحن؟ فتهرّب النحويّ قائلا: الأمير أفصح من ذاك، لكن الحجّاج ألحّ عازما عليه، فأبان يحيى عن لحنٍ في القرآن، فلقي من الحجّاج جفوة، وأنذره بالخروج من العراق في ثلاثٍ أو القتل[95]، لحنٌ في كلام الله هو أسفل ما يتصوّر من دركات اللحن، فما كان من الحجّاج إلا نفي كبوته ونحويّها، وإذا كان اللغوي لا يصبر أن يرى عالما لا يجيد اللغة، فيبادر إلى نصحه كما تقدم للأصمعي مع إمام دار الهجرة، فقد وقع ذلك لهم مع الأمراء أيضا، ومنه حكاية الأخفش قال: "كان أمير البصرة يقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾ [الأحزاب:56] بالرفع، فيلحن، فمضيت إليه ناصحا، فزبرني وتوّعدني، وقال: تلحّنون أمراءكم"[96]! وفي رواية أن الأمير أرسل إلى النحويين أن احتالوا لي، ففعلوا وأحسن صلتهم، ولم تزل قراءته حتى مات، وكره أن يرجع عنها، فيُقال: إن الأمير لحن[97].

وقريب من الأمر أن أولئك الرجالات كرهوا الظهور بمظهر مَن يجهل من العربية، فقد غاب الأصمعي عن الرشيد غيبة طويلة، فلمّا دخل على الرشيد، سأله، فقال الأصمعي: "يا أمير المؤمنين، ما ألاقتني أرضٌ حتى وافيتك"، فلم يدر الرشيد ما معنى "ألاقتني"، وأمسك مغتاظًا، فلمّا انفضّ الناس، قال له:

89 – السابق: 13.

90 – التوحيدي، البصائر والذخائر: 181/1.

91 – ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 380/45.

92 – الصولي، أدب الكُتاب: 133.

93 – المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد: 15/1.

94 – ابن عبد ربه، العقد الفريد: 308/2.

95 – يُنظر: الجمحي، طبقات فحول الشعراء: 13/1، السيرافي، أخبار النحويين البصريين: 18–19، الجهشياري، الوزراء والكُتاب: 42.

96 – يُنظر: الزجاجي، مجالس العلماء: 44/1، القفطي، إنباه الرواة: 43/2، البغدادي، خزانة الأدب: 316/10.

97 – يُنظر: الزجاجي، مجالس العلماء: 44/1، البغدادي، خزانة الأدب: 316/10.

"احذر أن تكلّمني بين العامة بما لا أفهمه"[98]، وأحبّ أولئك إظهار معرفتهم بلغات العرب، فقد حكى المازني أنه أُشخص من البصرة إلى الواثق، فلما دخل عليه، سأله الواثق: باسمُك؟ يريد ما اسمُك، قال المازني: "وكأنه أراد أن يعلمني معرفته بإبدال الباء مكان الميم في هذه اللغة"[99].

وربما حجبَ قُضاة الحاجات في الدولة السائلَ عن حاجته لجناية اللحن، قال مسلمة بن عبد الملك بن مروان (قائد عسكري أموي): "إنّ الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحنَ انصرفت نفسي عنها"[100]، ويلفت النظر حقّا أن يُنقل نحو ذلك الحجب عمّن عُرف بالعدل والورع، قال عمر بن عبد العزيز: "إنّ الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنها، لبغضي استماع اللحن، ويكلّمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب، فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه"[101]، ولعل مثل هذا الملمح من قُضاة الحاجات الذي تولّد في اللاوعي عند بعض السلف –كما تقدّم– فرأوا أن اللحن قد يمنع من إجابة الله لدعاء العبد.

وكان للمعرفة النحوية مكانة فريدة حتى اشتهر أصحاب النحو بالغرور، وكأنهم اعتادوا الإصلاح على كلام غيرهم حتى رأوا لأنفسهم مكانة فوقهم، فقد حكى يحيى بن أكثم عن نفسه قال: فبينما أنا جالسٌ مع المأمون إذْ دخل الدار فتى أبْرعُ الناس زِيًّا وهيئة ووقارًا وهو لا يلتفت إعجابًا بنفسه، فنظر إليه المأمون، فقال: يا يحيى، إنَّ هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشميًا أو نحويًا، فلما عرفوا أنه نحوي، قال المأمون: "يا يحيى، أعلمتَ أن عِلْم النحو قد بلغ بأهله من عزَّة النفس وعُلُوّ الهمَّة منزلة بني هاشم في شرفهم؟! يا يحيى، مَن قعد به نسبه، نهض به أدبه"[102].

إن كل تلك المقولات التي صدرت عن أفراد مختلفين من الفاعلين الاجتماعيين، وشاعت في أوساط النخبة الاجتماعية، كانت في الحقيقة انعكاسا لبُعد طبقي وتأكيدا لإحدى سمات عِلية القوم، فمعرفة العربية نحوًا والاطلاع على أدبها وشعرها كانت من سمّات المثقّف (المتأدِّب) الممثل للخاصة والنائي بنفسه عن العامة[103]، واللغة المعربة كانت حاجزا معنويا أفقيا فوقه الصفوة، وتحته مَن كِيلت لهم الأوصاف: الدهماء والرعاع والغوغاء والتحوت والسفلة وما إلى ذلك.

وقد رأى بعض الباحثين أن عِلية القوم رغبوا في العربية المعربة تميّزا من قاع المجتمع، وكان معتمَد هذا الرأي مقولات في علم الاجتماع خلاصتها أن المترفين في كل مجتمع يحاولون بكل جهدهم أن يتّخذوا من المظاهر والشعائر ما يميزهم من الطبقات الدُّنيا، وأنهم يحرصون على أن تكون صعبة المنال أو غالية الثمن حتى يعجز الفقراء عنها[104]، وهو رأي لا يجاوز واقع الثقافة العربية وما أفرزته على لسان رموزها، فمن ذلك أنه "كان خالد بن صفوان التميمي المشهور بالبلاغة يدخل على بلال بن أبي بردة [أمير البصرة]، فيحدثه طويلا ويلحن في كلامه، فلما كثر

98 – ابن النحاس، صناعة الكُتاب: 38.

99 – السيرافي، أخبار النحويين البصريين: 60، الأنباري، نزهة الألباء: 143.

100 – الجاحظ، الرسائل: 380/1.

101 – ابن الأنباري، الأضداد: 244–245، بتصرف.

102 – البونسي، كنز الكُتاب: 88/1، بتصرّف.

103 – يُنظر: فيشر، دراسات في العربية: 15.

104 – يُنظر: الوردي، أسطورة الأدب الرفيع: 193.

ذلك على بلال، قال له: يا خالد، تحدّثني أحاديث الخلفاء وتلحن لحن السقاءات؟! فصار خالد بعد ذلك يأتي المسجد ويتعلّم الإعراب"[105]، وجعل المأمون اللحن لغة العبيد والإماء، وذلك أنه سمع لحنًا من بعض ولده، فقال: "ما على أحدكم أن يتعلّم العربية ... أيسرّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان أمته أو عبده، فلا يزال الدهر أسيرَ كلمته"[106]؟!

وفي هذا المجال عُني أصحاب العربية بتقديم المعرفة اللغوية اللازمة لتجنّب اللحن، وألّفوا كُتبا بعنوان: "ما تلحن فيه العامّة"، فممن نُسب إليه التأليف بذلك العنوان الكسائي (على اختلاف بين المعاصرين في صحّة النسبة)[107]، وأبو عبيدة[108]، وأبو نصر أحمد بن حاتم[109]، والمازني[110]، وأبو حاتم السجستاني[111]، وأبو حنيفة الدينوري[112]، والمفضل بن سلمة، واسمه "الفاخر فيما تلحن فيه العامة"[113]، ولأبي الهيذام كلاب بن حمزة العقيلي "ما تلحن فيه العامة"[114]، وقد جاءت بعض تلك المؤلفات بعنوان مختلف قليلا، مثل: "لحن العوام" للزبيدي، وكان أقدم ما بلغنا من التنبيه على أخطاء العامة ما ذكره ابن قتيبة في كتابه "أدب الكاتب".

والمقصود بالعامّة الذين يتوجّه إليهم هذا النوع من التأليف عامة النخبة الثقافية من المعتنين بشأن العلم والمتأدّبين، ومن أهم مَن يدخل فيهم الكُتاب، لا الدهماء وخُشارة الناس[115]، فأولئك المتأدبون هم الذين كانوا معنيين بتجنّب اللحن وهفوات اللغة[116]، مثلما أن كتب الأخطاء الشائعة اليوم متجهة لعامة الكَتَبة، فقدّمت لهم تلك الكتب أوليات المعرفة اللغوية مما يلزم لسلامة المنطق، وما يمنح الفرد سمة "المتأدّب"، ومما يدلّ عليه أن ابن قتيبة قد وجّه كتابه "أدب الكاتب" إلى الكُتاب، لكنه في جزء غير قليل من ذلك الكتاب قد ذكر أخطاء العوام، وهذا يدلّ على أن الكُتاب يدخلون في تلك التسمية، وتفصيل الأمر أن ابن قتيبة قد شكّل كتابه من أربعة كتب، وجاء الكتاب الثالث فيه بعنوان: "كتاب تقويم اللسان"، وأغلب أبوابه في التنبيه على أخطاء العامة، مثل: باب ما يُشدّد والعوام تخفّفه، باب ما جاء خفيفا والعامة تشدّده، باب ما يُتكلّم به مثنّى والعامة تتكلم بالواحد منه ... إلخ، وقد كانت العنوانات الصريحة المرتبطة بالتنبيه على أخطاء العامة نحو 20 بابا، وجملة أبواب الكتاب 35 بابا، ومما يدلّ عليه أيضا كلام الجاحظ قال متحدّثا عن بلاغة الكُتاب: "وإذا سمعتموني أذكر العوام فإني لستُ أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة ... وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا، على أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضا"[117].

ولا يشترط في هذه المؤلفات التي وجّهها العلماء لعامة المتأدّبين ورود لفظ "العامة"، فمنها أيضا "إقامة

105 – الصفدي، الوافي بالوفيات: 176/10.
106 – ابن الأبار، إعتاب الكُتّاب: 126.
107 – يُنظر: الكسائي، ما تلحن فيه العامة (مقدمة المحقق): 69.
108 – يُنظر: النديم، الفهرست: 80.
109 – يُنظر: السابق: 83.
110 – يُنظر: السابق: 85.
111 – يُنظر: السابق: 87.
112 – يُنظر: السابق: 116.
113 – يُنظر: السابق: 109.
114 – يُنظر: السابق: 122، وفي الأصل "أبو الهندام" والصواب ما أثبت، يُنظر: المرزباني، معجم الشعراء: 354، ياقوت، معجم الأدباء: 1736/4.
115 – يُنظر: عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي: 70.
116 – يُنظر: غروندلر، نشأة الكتاب العربية: 226.
117 – الجاحظ، البيان والتبيين: 173/1.

اللسان على المنطق" لأبي عبد الرحمن اليزيدي[118]، ولأبي القاسم عبد الله بن علي (من ولد علي بن عيسى وزير المقتدر) "كتاب البيان وتقويم اللسان"[119]، وكتاب "الفصيح" لثعلب، وقد قال في أوله: "هذا كتاب اختيار فصيح الكلام، مما يجري في كلام الناس وكتبهم"[120]، وقد شرحه ابن درستويه وهو من تلاميذه، وله "شرح الفصيح"[121]، ومنها "إصلاح المنطق" لابن السكيت، وقد جاء الكتاب من دون مقدّمة، ولكن في موضوعاته ما يشابه كثيرا "أدب الكاتب" لابن قتيبة، كما أن ابن السكيت مكثر من قوله: "العامة تقول"[122]، وهو كتاب كان له حظ كبير من الانتشار، وأقبل عليه علماء بالشرح والتهذيب ونحوه.

خامسا: الإقبال على تعلّم العربية لفُرصها المهنية:

في مجتمع قدّر العلوم الدينية تقديرا عاليا ورفع من مكانة أهلها، فالعلماء هم صفوة أهل الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾ [فاطر:28]، وهم أيضا "ورثة الأنبياء"[123]، كان من الطبيعي أن تتشكّل فيه مظاهر تعود على صاحب العلم بعوائد دنيوية، كما أن الشارع الحكيم لم يحجّر على العبد أن ينال حظا دنيويا إلى أجر الآخرة، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:77]، من أجل ذلك كان من أغراض الإقبال على العلوم الدينية عامة واللغوية خاصّة أن يحسّن العبد من دُنياه، قال عبد الملك بن مروان لبنيه: "اطلبوا العلم فإن استغنيتم كان لكم جمالا، وإن افتقرتم كان لكم مالا"[124]، وقال الشافعي: "مَن أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومَن أراد الآخرة فعليه بالعلم"[125]، وقال أحد الأعراب: "تعلّموا العلم، فإنكم إن كنتم ملوكا فقتم، وإن كنتم أوساطا سُدتم، وإن أعوزتم عشتم"[126]، ومما حُفظ من الطرائف عن أحد المتأدبين، وقد استكثر ما أنفقه ابنه في كتاب: "إنّما رغّبني في العلم أنّي ظننت أنّي أنفق عليه قليلا وأكتسب كثيرا، فأمّا إذا صرت أنفق الكثير، وليس في يدي إلّا المواعيد، فإنّي لا أريد العلم بشيء"[127]!

كان أرجى ما تبلغه المعرفة اللغوية بصاحبها حِمى السلطان، قال قاضي الكوفة ابن شُبْرمة: "إذا سرّك أن تعظم في أعين مَن كنت عنده صغيرا، ويصغر في عينك مَن كان فيه كبيرا، فتعلم العربية، فإنها تجزيك عن المنطق وتدنيك من السلطان"[128]، وقال الأصمعي: "قال لي أعرابي: ما حرفتك؟ قلت: الأدب، قال: نعمَ الشيء، فعليك به فإنه يُنزِل المَملوك في حدّ الملوك"[129]، ومن الطريف أن بعض مَن بلّغهم علمُهم الدنوّ من السلاطين، غير أنهم كانوا من المؤثرين للبُعد عن ذلك الموضعِ الخطرِ سلامةً للدين،

118 – يُنظر: النديم، الفهرست: 75.

119 – يُنظر: السابق: 186.

120 – ثعلب، الفصيح: 260.

121 – يُنظر: النديم، الفهرست: 94.

122 – ابن السكيت، إصلاح المنطق: 91، 145، 146، 148، 150، 151، 162، 163، 167، وغيرها.

123 – "إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر". الترمذي، سنن الترمذي: 48/5.

124 – اليغموري، نور القبس: 3.

125 – البيهقي، مناقب الشافعي: 139/2.

126 – اليغموري، نور القبس: 3.

127 – يُنظر: الجاحظ، الحيوان: 41/1.

128 – ابن عبد البر، أدب المجالسة: 61.

129 – ياقوت، معجم الأدباء: 22/1.

احتالوا للفرار من ذلك بالتظاهر بجهل العربية، فمن قصص الحجّاج أنه بعث إلى والي البصرة: أن اختر لي عشرة ممن عندك، فاختار رجالا منهم كثير بن أبي كثير، وكان رجلا عربيا، وقال كثير: وقلت في نفسي: لا أفلتُ من الحجاج إلا باللحن، فلما دخلنا عليه، دعاني ما اسمك؟ قلت: كثير، قال: ابن مَن؟ فقلت في نفسي: إن قلتها بالواو لم آمن أن يتجاوزها، فقلت: أنا ابن أبا كثير، فقال: عليك لعنة الله وعلى مَن بعث بك، قال: فأُخرجت[130].

وثمّة مهن أتيحت لصاحب المعرفة اللغوية، المهنة الأولى: الاشتغال بالتأديب، وهي أكثر شيوعا وأقدم زمانا، والمهنة الثانية: الكتابة في دواوين الدولة، وهي أقل شيوعا ومتأخرة عن التأديب، وثالث تلك المهن الوراقة، غير أنها لم تشع في أصحاب العربية، وليست المهن الثلاث بمنفصلة، بل ينظمها سمط العلم، وربما ابتدأ رجل بإحداها وانتهى إلى أخرى، فإمام الكُتّاب عبد الحميد الكاتب بدأ أول أمره معلّم صبيان[131]، ثم بلغ أعلى منازل الكتابة، وأحمد بن سهل البلخي كان أيضا معلّما للصبيان، ثم ارتفع بالعلم حتى عُرضت عليه الوزارة، فأبى واختار سلامة الأولى والعُقبى[132]، وله "كتاب مدح الوراقة"[133]، وابن أبي طاهر الملقب بابن طيفور كان مؤدّب كُتاب عاميا، ثم جلس في سوق الوراقين[134]، وابن مقلة بدأ ورّاقا ثم ترقى حتى نال منصب الوزارة، وكان خطّه آية في الحسن، يُقارن به كل خطّ حسن[135].

أما المهنة الأولى (التأديب)، فقد كان لها حاجة اجتماعية واسعة، حتى جعل عبد الله بن مسعود حاجة الناس إلى معلّم يعلّم أولادهم مثل حاجتهم إلى أمير يحكم بينهم، وجَعلَ الأمرين مما لا بد للناس منه[136]، وذكر أنه لولا ذلك لأكل الناس بعضهم بعضا، ولولا هذا لكان الناس أُميين، وقد عنيت النخبة بالتأديب عناية، ويُحكى في ذلك أن المنصور بعث إلى مَن في الحبس من بني أمية يقول لهم: ما أشدّ ما مرّ بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: "ما فقدْنا من تأديب أولادنا"[137].

والتأديب مرتبتان، أدناهما التأديب العام، أي تأديب أولاد العامة، ثم قد يجد العالم النابغ فرصته إلى التأديب الخاص، أي تأديب أولاد الخاصة من خلفاء وأمراء ووزراء وولاة وقادة وأعيان، ثم قد يكون هذا طريقا لأن يكون ذلك العالم المؤدِّب من حاشية أصحاب المراتب، وهو مقام مشوب بالهبات السخيّة والعطاء على التأليف لأولئك القوم ولأبنائهم ومعاونتهم على التأليف[138]، وقد ابتدأ تكسّب أصحاب اللغة بالتأديب خاصّا وعامّا في وقت مبكّر، فيُروى أن معاوية بن أبي سفيان اتخذ دَغفَلا النسّابة مؤدّبا لابنه يزيد يعلّمه العربية والأنساب[139]، وأنّ أبا الأسود الدؤلي

130 – السابق: 27/1، بتصرف يسير.

131 – يُنظر: النديم، الفهرست: 170.

132 – يُنظر: ياقوت، معجم الأدباء: 274/1، 278.

133 – ينظر: النديم، الفهرست: 199.

134 – ينظر: السابق: 209.

135 – يُنظر: قاري، الوراقة والوراقين: 22–23، النملة، الوراقة:140، وكثيرا ما يكرّر النديم أنه رأى أشياء بخطه أو بخط من نقل عن خطّه، يُنظر مثلا: النديم، الفهرست: 59، 63، 79، 82، 91، 99، 102، وغيرها.

136 – يُنظر: سحنون، آداب المتعلمين: 73.

137 – يُنظر: الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء: 68/1.

138 – ومن ذلك أن أبا الحسن الخزاز وأبا بكر بن مجاهد أعانا الوزير علي بن عيسى في كتاب "معاني القرآن"، يُنظر: النديم، الفهرست: 186، وللتوسع في ظاهرة تأليف علماء العربية لأصحاب المراتب يُنظر: العبسي، في العوامل الخارجية لنشأة علوم اللغة والنحو –عامل المهنة والتكسّب أنموذجا.

139 – يُنظر: الكلبي، مثالب العرب: 268، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: 291/17، اليغموري، نور القبس: 347.

كانَ يعلّم أولاد زياد بن أبيه وهو والي العراقين[140]، وسعد الرابية من تلاميذ الدؤلي كان يعلّم النحو على رابية، فنُسب إليها[141].

وعدد من النحاة ابتدأ بالتأديب العام ثم ترقى إلى أولاد الخاصة، ومنهم أبو محمد اليزيدي كان معلّما قبالة دار أبي عمرو بن العلاء دهرا، ثم أدّب ولد يزيد بن منصور الحميري (خال المهدي)، ثم اتصل بالرشيد فجعله مؤدّب المأمون[142]، وأدّب أبو عبيد القاسم بن سلام أولا تأديبا عامّا بمرو[143]، ثم اتصل بثابت الخزاعي (قائد عباسي) وأدّب ولده، ولما ولي ثابتٌ طرسوسَ، ولي أبو عبيد القضاء بها[144]، وكان يعقوب بن السكيت يؤدّب مع أبيه بمدينة السلام في درب القنطرة صبيان العامة[145]، ثم اختير لمنادمة المتوكّل وأدّب ولده[146]، وكان أبو جعفر الضبي الكوفي يؤدّب صبيان العامة[147]، ثم أدّب عبد الله بن المعتز[148].

وقد شاعت مهنة التأديب في أخبار اللغويين والنحاة، حتى إنها تُذكر في تراجم لغويين مغمورين لا يُترجم لهم إلا بسطر واحد أو اثنين، ولا نعرف عن مكانتهم العلمية شيئا مفصّلا، فلا يُذكر ما يدلّ على المكانة العلمية من مؤلفات أو ثناء، ولا يُذكر لهم شيوخ ولا تلاميذ[149]، بل من إيغالهم في الجهالة أنهم لا يُذكرون إلا باسم مفرد، ومع ذلك يُعرف عنهم أنهم اشتغلوا بالتأديب[150].

وأما المهنة الثانية (الكتابة)، فقد كانت ذات صلة بعلوم اللغة، وقد ذكروا "أدوات الكتابة"، أي المهارات التي يستلزم على الكاتب معرفتها، وكان منها علوم لغوية، وهي: الخط والنحو والبلاغة[151]، بل إن عموم الناشئة الذين درسوا في مكاتب العلم أُطلق عليهم "الكُتّاب" تفاؤلا في أن يكونوا كُتابا من العاملين في الدولة[152]، غير أنّ اللغويين لم يحضروا في الكتابة من وقت مبكّر، وكذلك لم تشع فيهم، والسبب أنها مهنة كانت تحتاج إلى مهاراتها الخاصة، فمنها علوم مالية، وهي استخراج الأموال والحساب، وعلوم إدارية، وتشمل الترتيبات الإدارية داخل الدواوين، كما أن المعرفة اللغوية العامة وحدها ليست كافية، بل لا بد معها من معرفة لغوية تتصل بتقاليد الكتابة، مثل: كتابة التعزية والتهنئة والعزل والتولية والوعيد

140 – يُنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان: 536/2.

141 – يُنظر: ياقوت، معجم الأدباء: 1345/3، اليغموري، نور القبس: 23، السيوطي، بغية الوعاة: 578/1.

142 – يُنظر لما سبق: ابن النحاس، صناعة الكُتّاب: 44، السيرافي، أخبار النحويين البصريين: 33، الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 61، الأنباري، نزهة الألباء: 69.

143 – يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 199، وقد نقلَ قولَ الجاحظ في أبي عبيد "وكان مؤدّبا"، ويُنظر: ياقوت، معجم الأدباء: 2199/5، وفيه ما سبق عن الجاحظ، القفطي، ويُنظر: إنباه الرواة: 15/3، وإطلاق صفة المؤدّب عليه في المصادر السابقة من دون قرنه بأولاد الخاصة تُرجّح أنه اشتغل أول أمره بالتأديب العام.

144 – يُنظر: ابن النحاس، صناعة الكُتاب: 44–45، الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 199، اليغموري، نور القبس: 314.

145 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 138–139، وفيه "وكان معلّما للصبيان ببغداد، ثم أدّب أولاد المتوكل"، ويُنظر: السيوطي، بغية الوعاة: 349/2.

146 – يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 202، القفطي، إنباه الرواة: 56/4، الأنباري، نزهة الألباء: 138.

147 – يُنظر: القفطي، إنباه الرواة: 179/3.

148 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 157، ياقوت، معجم الأدباء: 2585/6.

149 – ومن أمثلته: المدني، الأحدب، محمد بن إسماعيل. يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 237، 257، 290.

150 – ومن أمثلته: مذحج المؤدّب، وطاهر، وعبد الصمد. يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 290، 292، 292.

151 – يُنظر: ابن النحاس، صناعة الكُتاب: 26.

152 – يُنظر: السابق: 95.

وغيرهما من المناسبات والظروف، ومنها آداب مكاتبة الخليفة ومكاتبة ولي العهد ومكاتبة المرؤوس إلى رئيسه ومكاتبة النظراء والمكاتبة إلى الأدنى، ويبدو أن مما دعا اللغويين إلى الإحجام عن اقتحام ذلك المجال ما شاع في الفضاء السلطاني من حبك المؤامرات والدسائس، حتى إن كُتابا ألفوا في بيان ذلك ونقضه[153].

وعلى الرغم مما ذُكر، كان هناك كُتّاب من أصحاب المعارف اللغوية والأدبية ممن دخل في سلك أعوان الدولة، وألّف في اللغة وقضايا البلاغة والكتابة، ومنهم قدامة بن جعفر وله "الخراج وصناعة الكتابة" و"جواهر الألفاظ"، والهمذاني وله "الألفاظ الكُتّابية"، والصولي وله "أدب الكاتب" و"الأوراق"، وابن النحاس وله "صناعة الكُتاب"، وابن المرزبان وله "الألفاظ".

وأما المهنة الثالثة (الوراقة)، فقد صاحبت انفجار ثورة الكتاب العربي على إثر دخول صناعة الورق إلى بلاد الإسلام، وقد ازدهرت هذه المهنة في العالم العربي، ولم تخلُ مدينة آنذاك من سوقٍ للوراقة، ومدينة مثل بغداد حوت أكثر من سوق لها[154]، وقد نالت الوراقة تقديرها بين العلماء، وغدا سوق الوراقين موئل الصفوة العلمية من أهل الأدب والفكر والسياسة[155]، وقد بُغّضت الأسواق للأشراف إلا سوق السلاح وسوق الورق[156].

والوراقة مهنة يُعين على أدائها المعرفة اللغوية، ولو في حدّها الأدنى، ولذلك يُثنى على الوارّق بمعرفة العربية[157]، كما أن التصحيح للنسخة من عمل الوراق[158]، وقد اشتغل عدد من أصحاب العربية بالوراقة، فمنهم علي بن المغيرة الأثرم، وقد أخذ عن أبي عبيدة والأصمعي وأخذ عنه ثعلب[159]، ومحمد بن الحسن الأحول (في طبقة ثعلب) وكان يورّق بالأجرة[160]، وأبو عبد الله الكرماني النحوي الوراق (من تلاميذ ثعلب)[161]، وأبو الحسن الوراق النحوي (من تلاميذ ثعلب)[162]، وأبو الحسين الخزاز النحوي (من تلاميذ المبرد وثعلب)[163]، وكان أبو موسى الحامض يورّق، وقد وُصف بحُسن الخط[164]، وكان السيرافي ينسخ بأجرة عشرة دراهم تكون بقدر مؤونته[165].

وسنجد في الأعراب الفصحاء مَن كان له صلة بالوراقة، وممن نُصّ على عملِه بالتوريق الأعرابي عمرو بن كِرْكِرة[166]، وتظهر صلة أبي مسحل الأعرابي بالوراقة في قصة تُحكى، وفيها أن إسماعيل بن صبيح كاتب الرشيد استقدم أبا عبيدة من البصرة إلى بغداد أيام الرشيد، فجعل ابنُ صبيح الأثرمَ في

153 – يُنظر: النديم، الفهرست: 195، ياقوت: معجم الأدباء: 1674/4، ويُنظر أيضا: النديم، الفهرست: 200.

154 – يُنظر: قاري، الوراقة والوراقون: 22–23.

155 – يُنظر: سعيد، موسوعة الوراقة والوراقون: 387/1.

156 – يُنظر: الجاحظ، الحيوان: 40/1.

157 – قيل في شمس الدين محمد الحسيني: "وكان كثيرا ينسخ لنا، وخطه منسوب في نهاية الجودة، وهو فاضل في العربية". ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: 725.

158 – يُنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون: 503/1، 532، قاري، الوراقة والوراقون: 45.

159 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 126، القفطي، إنباه الرواة: 319/2.

160 – يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 208، القفطي: إنباه الرواة: 91/3.

161 – يُنظر: القفطي: إنباه الرواة: 151/3، السيوطي، بغية الوعاة: 144/1.

162 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 147، القفطي، إنباه الرواة: 165/3، السيوطي، بغية الوعاة: 239/1.

163 – يُنظر: القفطي، إنباه الرواة: 130/2–131.

164 – يُنظر: النديم، الفهرست: 117، القفطي، إنباه الرواة: 22/2.

165 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 228، ياقوت، معجم الأدباء: 877/2.

166 – يُنظر: النديم، الفهرست: 49، القفطي، إنباه الرواة: 360/2.

دار من دوره، وأغلق عليه ودفع إليه كتب أبي عبيدة لينسخها، فاستعان بأبي مسحل وجماعة خِفيةً لتعجيل النسخ مع أن أبا عبيدة كان من أضنّ الناس بكتبه[167]، وتداخلُ الأعرابِ بالوراقة أمر معقول، لا سيما في كتب العربية التي كان قوامها عالَم الصحراء وهو عالم الأعرابي، فالظاهر أن الأعراب الوراقين كان لهم ميزة لم تكن لغيرهم من الوراقين، فعلمهم بالعربية نحوا وغريبا جعلَ نُسخَهم أوثق من نسخ غيرهم في بُعدها عن التصحيف والتحريف.

وعلى الرغم مما تقدّم، لم تشع الوراقة كثيرا بين أرباب العربية، ويبدو أن من أسباب ذلك أنها مهنة شاقة مملّة، تكرّرت شكوى أصحابها منها[168]، ووصفت بأنها حرفة العسر والشؤم[169]، فقالوا في ذلك شعرا[170]، وعبّرت المنامات عن عذاباتهم، فرأوا فيها أنهم لن يرتاحوا من النسخ إلا في الجنة[171]، وعموما لجأ إلى مهنة الوراقة مَن لم يتصل بعمل يدرّ عليه دخلا جيّدا أو من آثر تجنّب القرب من أصحاب المراتب[172]، وفي حالات كانت الوراقة خيارا تاليا لمَن كبا به الدهر[173].

والنوابغ في علوم العربية حظّهم في التأديب الخاص أوفر، وقد يعملون في الوراقة لحالة خاصة، ومن ذلك أن يكون متورّعا يحب أن يأكل من كسب نفسه، كما ذكروا ذلك في حق السيرافي عند ذكر عمله بالوراقة[174]، والحامض من أكابر أصحاب ثعلب وجلس مكانه بعد موته، غير أنه ضيّق الصدر سيئ الخلق شرس، وقد استُبعد من الصلاة على ثعلب لذلك[175]، فالظاهر أن ذلك الطبع لم يقرّبه من الخاصة وتأديب أولادهم.

ويبقى الأحرى بالوراقة من أصحاب اللغة مَن هم دون المرتبة الأولى، مع أن الأشيع في ذلك المستوى الاشتغال بالتأديب العام أكثر من الوراقة، ومن أجل ذلك تكرّر ذكر أسماء ذات جهالة للغويين في التأديب العام، لا في الوراقة (تقدّم ذكر تراجم للغويين مغمورين يُذكر فيها التأديب)، وممن ذُكر بالوراقة من أصحاب العربية من هؤلاء الأثرم، ويبدو دوره في رواية كتب أبي عبيدة والأصمعي أكثر من حضوره العلمي، وقد سُئل يوما في حلقته في موضعين من شعر الراعي فلم يجب، وردّ على السائل المتعنّت بمَثَل فصحّف فيه! فاضطر مهزوما إلى مغادرة الحلقة ودخول بيته[176]، كما نلحظ أن من اشتغل من اللغويين بالتوريق لم يعمل بالوراقة العامة، بل مع الشخصيات الخاصة من الوزراء أو العلماء ونحو ذلك المجال الذي يكون قريبا من الهبات السخية، كما ورد في توريق أبي مسحل والأثرم مع كاتب الرشيد، ومن أخبار ذلك أن كاتب الرسائل أيام أحمد بن طولون أرسل إلى أبوي العباس المبرد وثعلب وإلى ورّاق كان يجلس عند ثعلب ثلاثة آلاف دينار، لكل واحد ألف دينار[177]، ومن العجيب أن ينال الورّاق مقدار ما نال أولئك العَلَمان.

---

167 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 126–127، القفطي، إنباه الرواة: 319/2–320.

168 – يُنظر: سعيد، موسوعة الوراقة والوراقين: 340/1.

169 – يُنظر: ياقوت، معجم الأدباء: 1937/5.

170 – يُنظر: الثعالبي، يتيمة الدهر: 510/4.

171 – ياقوت، معجم الأدباء: 2357/5.

172 – يُنظر: قاري، الوراقة والوراقون: 33–34.

173 – يُنظر: السابق: 36.

174 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 228، معجم الأدباء: 877/2.

175 – الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 152.

176 – يُنظر: الأنباري، نزهة الألباء: 127، القفطي، إنباه الرواة: 58/4.

177 – يُنظر: ياقوت، معجم الأدباء: 629/2.

وثمة فئة أخرى حرصت على المعرفة اللغوية والأدب لاتصالها بمجالها ومهنتها، وإن تأخّرت في الزمن إلى زمن العباسيين، وهي الجواري والقيان، فالمجتمع الذي شاع فيه حُبّ المعرفة والثقافة، فطِن فيه النخّاسون إلى أن أدب الجارية ومؤهلاتها الفنية والأدبية تُقوّم في سوق الرقيق كما يقوّم جمالها أو أكثر، وكما يحرص كل بائع على تجويد بضاعته، حرص أرباب النخاسة بغيةَ الربح على تأديب الجواري وتعليمهن الكياسة (البروتوكولات الاجتماعية) من عادات السادات في الكلام والإصغاء والتوقير وعلى الموائد، وإذا كانت القيمة المعتادة للجارية مئتي دينار، فإن الأديبة المغنية تربو قيمتها على أضعافِ أضعاف ذلك[178]، حتى بلغت قيمة جارية وُصفت بحُسن الغناء ثلاثة عشر ألف دينار، اشتراها أحد قادة العباسيين وأعطى الدلّال عليها ألف دينار، واستعظم الناس ذلك[179].

دفع أصحابُ النخاسة الجواري للعلم والأدب، وقد كانت الصالحات لذلك هنّ المنحدرات من الرقيق الناشئات نشأة عربية، أو اللائي جُلبن إلى دار الإسلام صغيرات قابلات للتعلّم[180]، وأما مَن جُلبن من بلادهن بعد سنّ التعلّم، فأولئك كُن من موارد اللحن الذي أضحك، وخلّقَ الطرائف المروية، ولم يفت الشعراء الظرفاء أن يوردوا ما يقع على ألسنتهن من المعاني المستشنعة غير المقصودة بسبب تحريف الأصوات العربية[181]، ومع ذلك تبقى الجواري المؤدَّبات قليلات بالنسبة إلى عموم الجواري[182].

تعلّمت الجواري الخط والشعر والنحو والغناء[183]، وكُن يضبطن القصائد المغنّاة على أيدي علماء العربية، وفي ذلك قصة مشهورة لجارية كانت عند المازني[184]، وربما عهد الخليفة إلى اللغوي ليقوّم مؤهلات الجارية، فقد أرسل الرشيد إلى الأصمعي لينظر في أمر جاريتين أُهديتا له، فسأل إحداهما في حروف من القرآن ثم الأخبار والشعر والنحو والعروض، فما قصّرت في شيء، واستنشدها إن كانت تقرض الشعر، فأنشدته، قال الأصمعي: "يا أمير المؤمنين، ما رأيتُ امرأةً في نُسك رجلٍ مثلَها"، وكانت الأخرى دونها[185].

نظمت الجواري شعر الغزل، وشاركن في ذلك شعراء البلاط، وخُضن معهم في تحدّي "الإجازة" الشعرية[186]، وربما استعر الهجاء بين جاريتين ووقف أدباء يعاونون هذه وآخرون يعينون تلك[187]، وربما احتكم لهن الشعراء ونقدن أشعارهم[188]، ولا شك أن كل ذلك يدل على معرفة لغوية غير قليلة، كما أحيت الجواري المؤدَّبات دُور النخّاسين، فكانت أشبه بالنوادي الأدبية يلتقي فيها الشعراء والكُتاب وأهل الأدب، يستمعون إلى غنائهن وينفقون فيها النفقات الواسعة[189]، ومن طرائف الأخبار في تفوّق الجواري في العلم أن أحد المتأدّبين وجارية

178 – يُنظر: حريتاني، الجواري والقيان: 121.

179 – يُنظر: الصولي، الأوراق: 101/2، ابن الجوزي، المنتظم: 120/14.

180 – يُنظر: عبد النور، الجواري: 59، وللجاحظ إشارة في ذلك، وسمى الناشئ في البيئة الأعجمية "المغلاق"، يُنظر: الجاحظ، البيان والتبيين: 71-70/1.

181 – يُنظر: الجاحظ، البيان والتبيين: 73/1-74.

182 – يُنظر: الدريسي، الجواري والغلمان: 213.

183 – يُنظر: الأصفهاني، الأغاني: 10/ 70.

184 – يُنظر: أبو الطيب، مراتب النحويين: 92، التنوخي، تاريخ العلماء النحويين: 68.

185 – يُنظر: الجاحظ، المحاسن والأضداد: 250.

186 – يُنظر: بلّا، الجاحظ: 351-352.

187 – يُنظر: الأصفهاني، الأغاني: 19/ 321.

188 – يُنظر: السابق: 8/ 202.

189 – يُنظر: السابق: 18/ 257.

سلمويه الطبيب نظرا في كتاب إقليديس في يوم واحد في ساعة واحدة، ففرغت الجارية من الكتاب وهو لم يحكم بعد مقالة واحدة[190].

سادسا: الإقبال على تعلّم العربية لطبيعتها المعيارية:

كان من دواعي تعلّم العربية طبيعةُ "العربية المعيارية"، وهو وجه لا يُذكر عادة، ولبيان المقصود بذلك نحتاج إلى العودة بالزمن إلى الوراء قليلا للوقوف باختصار على ظروف تشكّل المعيارية في بواكير البحث اللغوي، فنقول: كان الواقع اللغوي على جزيرة العرب يتألف من لهجات عدّة، غير أن الظرف الحضاري الذي تمثّل بانتقال الأمّة من الثقافة الشفاهية إلى الثقافة الكتابية، وذلك بشيوع الكتابة في سياقات عدّة وشيوع تعليم العربية للنشء– ذلك الظرف لم يكن يحتمل التنوّع اللهجي، ودعا إلى وجود "العربية الجامعة" لكل العرب، وبالمصطلح اللساني "العربية المعيارية"، كان الإجراء الذي اتخذه النحاة لبلوغ ذلك "العمل بالكثير وترك القليل"، أي العمل بالسائد اللهجي، وترك القليل مما تنفرد به اللهجات، وهذا معناه أن المستوى المعياري في تلك الظروف شكّله النحاة بالانتخاب من لهجات عدّة[191].

ويلزم من تشكّل المعيارية بالانتخاب من لهجات العرب أمران، الأمر الأول: أن اللغة المعيارية لم تكن سليقة لأحد[192]، وقد توصف اللغة بهذه الصورة بأنها "لغة اصطناعية"[193]، أي ليست لغة طبيعية تحضر في الاستعمال اليومي التلقائي، ولازم ذلك أن العربي مهما كان من الأقحاح، وأن الأعرابي مهما كان من قبائل الفصاحة، فإنه بحاجة إلى تعلّم ذلك المستوى الذي لم يكُ قطّ سليقةً لأحد، وإنما اللغة السليقة للأعرابي هي لهجة القبيلة التي نشأ فيها، مع التنبّه إلى أن المسافة بين العربية المعيارية وعربية ذلك العربي لم تكن بعيدة، وإنما كان يحتاج إلى ما يشبه التكميل أو التشذيب للهجته، بل نذهب إلى أن المسافة بين ذلك المستوى المعياري ومختلف اللهجات العربية ليست سواء، فهي أقرب إلى اللهجات التي حُكم لها بالفصاحة منها إلى اللهجات التي لم يُحكم لها بذلك، والأمر الثاني: أن اللغة المعيارية التي تشكّلت من عامة اللهجات العربية كانت ذات ثراء معجمي وتركيبي، وكانت أغنى بالتأكيد حينما تقارن بأي لهجة منفردة، وبيان ذلك أنه مما يُذكر في العربية بسبب تداخل

---

190 – يُنظر: الجاحظ، الحيوان: 41/1.

191 – هناك فرضية أخرى في تكوّن العربية المعيارية (أو العربية الفصحى)، وهي أنها تشكّلت في الشعر قبل الإسلام، فالعربية المعيارية أصلها "العربية الأدبية المشتركة"، يُنظر مثلا: عبد التواب، فصول في فقه العربية: 91، وأصل المعيارية من القضايا ذات الطابع الإشكالي في تاريخ العربية، وقد أشار إلى ذلك عدد من المستشرقين، يُنظر: بلاشير، القرآن: 92، بلاشير، تاريخ الأدب العربي: 79–80، بِلّا، تاريخ اللغة والآداب العربية: 45، خالدوف، اللغة العربية: 30، وسبب الإشكال يعود إلى غموض عام في تاريخ الجزيرة قبل الإسلام وغموض أشد في تاريخها اللغوي، وأن ما بلغنا من نصوص عن طفولة العربية لا يقدّم صورة واضحة أبدا، والميل إلى فرضية تشكّل المستوى المعياري بعد الإسلام –للعوامل الحضارية وشيوع الكتابة– لا ينافي وجود مقدار من الخصائص المشتركة شاعت في الشعر قبل الإسلام، غير أنّ القاعدة المعيارية بتفاصيلها الدقيقة وسلطتها العلمية التي يبني عليها التصويب والتخطئة –تظل أمرا أخصّ من ذلك المقدار بكثير.

192 – القائلون إن العربية المعيارية تشكّلت من "العربية الأدبية المشتركة" يرون أيضا أنها لم تكن لغةَ سليقةٍ لأحد، يُنظر مثلا: عبد التواب، فصول في فقه العربية: 77، "وهذه هي الصفة الثالثة من صفات اللغة المشتركة، وهي أنها ليست لغة سليقة؛ لأن معنى السليقة هو أن تتكلم لغة من اللغات، بغير شعور بما لها من خصائص"، السابق: 91.

193 – يُنظر: بلاشير، تاريخ الأدب العربي: 77، أو "لغة مصطنعة"، يُنظر: كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي: 7، ويرى لاندبرغ في العربية الفصحى أن قوالبها النحوية يغلب أن تكون من صنع الشعراء، ويقارنها مارسيه بلغة هومير المصنوعة، يُنظر: عبد التواب، فصول في فقه العربية: 77، واللغة المصطنعة بوجه عام (عند العرب وغير العرب) تستعمل في سياقات رفيعة، مثل: الأدب والخطابة والقانون.

اللهجات –على المستوى الدلالي– ظهور المترادف[194]، وظهور المشترك[195]، وظهور التضاد[196]، ولا شك أن نظير ذلك قد حدث على المستوى التركيبي، فدعا إلى كثرة الأدوات والترادف التركيبي (مثل الترادف الدلالي)، ومن أمثلة ذلك أن يُذكر لاسم الإشارة المفرد المؤنث عشرة أشكال، "خمسة مبدوءة بالذال وهي ذي وذهي بالإشباع وذهِ بالكسر وذهْ بالإسكان وذات ... وخمسة مبدوءة بالتاء وهي تي وتهي بالإشباع وتِهِ بالكسر وتِهْ بالإسكان وتا"[197]، ومن ذلك تُعدّد أدوات النداء وقد بلغت ثماني، وهي: أزيد، أي زيد، آزيد، آي زيد، يا زيد، أيا زيد، هيا زيد، وا زيد[198].

وإن الأمرين السابقين –اللذين تولّدا عن طبيعة العربية المعيارية– قد أوجبا تعلّم العربية، وثمة أخبار ليست بقليلة تدلّ على أن أعرابا زمن الاحتجاج كانوا يحضرون حلقات أصحاب العربية، والحدّ الأدنى لتأويل ذلك أن ثمة أعرابا أرادوا تطوير معرفتهم اللغوية، ومنها الاطلاع على المستوى المعياري، وأحسن أحوال هؤلاء الإفادة من ذلك للعمل في التأديب، وممن أدّب في البادية من الأعراب أبو ثَرْوان العُكْلي[199] وابن كِرْكِرة[200]، وعلم أبو البيداء الصبيان في البصرة[201]، والأعراب الفصحاء كانوا لا يجهلون أن المعرفة اللغوية في ذلك المجتمع تمنح فرصة دنيوية، وقد قال الأعرابي أبو الجراح العقيلي: "تعلموا العلم، فإنكم إن كنتم ملوكا فقتم، وإن كنتم أوساطا سُدتم، وإن أعوزتم عشتم"[202]، والحدّ الأعلى أن ثمة أعرابا كانوا أكثر طموحا فرغبوا في الارتقاء بلغتهم من مستوى المعرفة السليقية إلى مستوى المعرفة الإبستيمولوجية على شاكلة العلماء، ويتضمن ذلك معرفة منظومة المصطلحات العلمية، وآليات العلماء في "مَعْيرة العربية"، وهو ما أسموه "القياس" لمعرفة المقبول والمردود من كلام العرب، وقد تضمّن ذلك أيضا معرفة كلام عامّة العرب، أي خروج الأعرابي من حدود لهجته، ومن أخبار ذلك ما جاء في ترجمة مؤرج السدوسي، قال أبو جعفر اليزيدي: "أخبرني مؤرج أنه قدم من البادية ولا معرفة له بالقياس في العربية، إنما كانت معرفته بالعربية قريحة، قال: فأول ما تعلّمت القياس في حلقة أبي زيد الأنصاري بالبصرة"[203].

ومن أخبار حضور الأعراب لحلقات علماء اللغة زمن الاحتجاج أنه جاء في ترجمة شيخِ سيبويه يونسَ بن حبيب: "وكانت حلقته بالبصرة ينتابها أهلُ العلم وطلابُ الأدب وفصحاءُ الأعراب والبادية"[204]، والشاهد منه: فصحاء الأعراب وفصحاء البادية، ففصحاء الأعراب هم سكنة الحضر من أصل بدوي، وفصحاء البادية من سكان البادية نفسها، ويبيّن ذلك رواية أخرى للخبر:

194 – يُنظر: عبد التواب، فصول في فقه العربية: 316.
195 – يُنظر: السابق: 329.
196 – يُنظر: السابق: 337.
197 – يُنظر: ابن هشام، شرح قطر الندى: 99.
198 – يُنظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 4/4 وما بعدها.
199 – يُنظر: النديم، الفهرست: 69، القفطي، إنباه الرواة: 105/4، وفيه "تعلم" وهو خطأ، والصواب "يعلم".
200 – يُنظر: النديم، الفهرست: 66، القفطي، إنباه الرواة: 360/2.
201 – يُنظر: النديم، الفهرست: 49، القفطي، إنباه الرواة: 102/4.
202 – اليغموري، نور القبس: 3.
203 – البغدادي، تاريخ مدينة بغداد: 15، 346، الأنباري، نزهة الألباء: 105، ياقوت، معجم الأدباء: 2731/6، القفطي، إنباه الرواة: 328/3.
204 – السيرافي، أخبار النحويين البصريين: 28، القفطي، إنباه الرواة: 76/4.

"وكانت حلقته بالبصرة، وينتابها طلاب العلم وأهل الأدب وفصحاء الأعراب ووفود البادية"[205].

وكذلك نجد أثرا للأعراب في حلقة الخليل، جاء في سيرة الكسائي أنه "خرج إلى البصرة فلقي الخليل بن أحمد، وجلس في حلقته، فقال رجل من الأعراب: تركتَ أسدًا وتميمًا وعندهما الفصاحة، وجئت إلى البصرة"[206]! وفي رواية "تركتَ أسد الكوفة وتميمها وعندهما الفصاحة، وجئتَ إلى البصرة"[207]! وهذا أعرابي في حلقة الفراهيدي يعرف قبائل الفصاحة ويستغرب مفارقة الكسائي لها ومدينتها.

ونجد أعرابيا في حلقة الأصمعي ينبّه على خطأ في بيت من الشعر، فيأخذ عبد الملك بن قريب –وهو هو– بقوله، وهذا يكشف أن حضور الأعرابي لم يكن يقتصر على التلقّي، بل له جانب تفاعلي، ولا يخلو من إفادةٍ لشيخ الحلقة، فقد ذُكر أنه "قرئ يوما على الأصمعيّ في شعر أبي ذؤيب: بأَسْفَلِ ذاتِ الدِّيرِ أُفْرِدَ جَحْشُها، فقال أعرابيّ حضر المجلس للقارئ: ضلّ ضلالك أيّها القارئ! إنّما هي (ذات الدَّبْر)، وهي ثنيّة عندنا، فأخذ الأصمعيّ بذلك فيما بعد"[208].

تلك أخبار ذات عموم على حضور الأعراب إلى حلقات العلم، وجاءت أخبار خاصّة تصرّح باسم الأعرابي في الحلقة، وتصرّح بأسماء أعراب أخذوا عن أهل العلم، فمن النوع الأول أن الفراء ذكر قراءة "سبخا" بالخاء المعجمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل:7]، وجاء في ذلك "حضر أبو زياد الكلابي مجلس الفراء في هذا اليوم، فسأله الفراء عن هذا الحرف، فقال: أهل باديتنا يقولون: اللهم سبّخ عنه، للمريض والملسوع ونحوه"[209]، وهو من الأخبار الدالّة أيضا على الجانب التفاعلي لحضور الأعراب، ومن النوع الثاني ابن كِرْكِرة الأعرابي، فقد ذكر أبو سعيد السكريّ أن عمرو بن كِرْكِرة سمع من أبي عمرو بن العلاء وغيرِه من رجال البصريين[210]، ومنهم أبو مِسْحَل الأعرابي، فقد ذُكر عنه أنه كان يحفظ عن علي بن المبارك الأحمر (صاحب الكسائي ومؤدّب الأمين) أربعين ألف بيت شاهد في النحو، وجاء أن أبا العباس ثعلبا قال: ما ندمتُ على شيء كندمي على ترك سماع الأبيات التي كان يرويها أبو مِسْحَل عن الأحمر[211].

ولتكتمل تفاصيل الصورة عن الأعراب في حلقات العلم، نذكر أن الأعراب كانوا على نوعين: عامة الأعراب، وخاصة الأعراب؛ فالنوع الأول (العامة) أعراب لقيهم العلماء في البوادي والمدن، وسمعوا منهم، ولم يكن لهم عناية بالعلم، وهؤلاء أصحاب سليقة ليس غير، وهم الأكثر عددا، والنوع الثاني (الخاصة) أعراب تكرّرَ لقاء العلماء بهم وسماعهم منهم، وعُرفوا بالكُنى والأسماء والنسبة أو ببعض ذلك، ولبعضهم مع العلماء أخبار متنوّعة، ورُويت أشياء مِن أحوالهم، وهؤلاء لهم عناية بالعلم، ومعنى ذلك أنهم أضافوا إلى سليقتهم الأولى معرفة

[205] – النديم، الفهرست: 47.
[206] – الأنباري، نزهة الألباء: 59.
[207] – القفطي، إنباه الرواة: 59، السيوطي، بغية الوعاة: 162/2.
[208] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء: 84/1.
[209] – الفراء، معاني القرآن: 197/3.
[210] – يُنظر: أبو زيد، النوادر: 231، القفطي، إنباه الرواة: 361/2.
[211] – يُنظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين: 135، الأنباري، نزهة الألباء: 80.

لغوية مكتسبة، حتى كان لبعضهم مؤلفات لغوية، وعدد هؤلاء قليل إذا ما قورنوا بالنوع الأول[212].

ومما يدلّ على نوعي الأعراب أنه اختلف أبو محمد اليزيدي والكسائي في "شِرا" قصرا ومدّا، واتفق كلاهما على الاحتكام إلى الأعراب، قال اليزيدي: "ادعُ بالأعراب فهم هاهنا حولك –وقد كانت أصابتهم مجاعة– فدعا منهم بعدةٍ فدخلوا عليه، قال أبو محمد: فكلّمت الأعراب الفصحاء وناشدتهم الشعر حتى عرفنا مذاهبهم في العلم، ثم قلت للكسائي: ترضى أن يكونوا بيننا وبينك؟ قال: نعم، فقلت لأفصحهم: كيف تقول في الكلام: اكتب هذا في شراك؟ قال: سبحان الله، اكتب هذا في شرائك، فمدّ، فخجل الكسائي"[213]، وظاهر من قول اليزيدي: "ناشدتهم الشعر حتى عرفنا مذاهبهم في العلم" أنه لم يرض بالأعراب حُكما حتى يعرف أنهم من الأعراب الخاصة لا الأعراب العامة، بل إنه، بتلك المذاكرة في الشعر عرف أخصّهم، واصطفاه بتوجيه السؤال إليه.

وثمة أمر آخر أيضا جذب الأعراب إلى حلقات العربية، الرغبة في الاستزادة من معرفة الشعر واللغة الأدبية، فالشعر يُباين معتاد الكلام ويتسامى عنه، وله لغة مخصوصة قوامها المجاز، والتكثيف المبني على الرمز والإيحاء، والانزياح بما فيه من تقديم وتأخير وعدول، ومن الطبيعي أن يتفاوت عامة الأعراب في إدراك تلك اللغة[214]، فمن كان أعنى بالشعر، امتلك من الثقافة ما يجعله أقدر على التفاعل مع عالم الشعراء، والصورة التي تجعل كل أعرابي عارفا بالشعر، وهجّيرى الأعرابِ الشعر وكأنها سليقة الأعراب قاطبة –أقرب إلى التخيّل، ويجلّي الحالَ كلامٌ لاثنين من أعلام العربية: شيخ سيبويه وما رافقه من شرح لأبي عبيدة، ففي قول الشاعر: "... وقد *** تُعدي الصحاحَ مَبارِكَ الجُربُ"، قال أبو عبيدة: "أنشدني داءوذ [داؤود] أحد بني ذؤيب، وغيره: الصحاحَ مباركُ الجربِ، فرفعوا مبارك وجرّوا الجرب، وذلك إقواء، وقال أبو الخطاب: إن عامّة أهل البدو ليست تفهم ما يريد الشاعر، ولا يُحسنون التفسير، وإنما أتى إقواء هذا، من قلّة فهم الذين رووه، وإنما عنى الشاعر وقد يُعدي الأجربُ الصحيحَ مبركًا، فلما وجدوه مقدّمًا ومؤخّرًا، لم يحسنوا تلخيصه، ووجدوا مبارك لا ينصرف، فأظلم المعنى عليهم"[215]، وفي الكلام ما يجعل الأعم في الأعراب عدم فهم الشعر، وليس بالضرورة أن نذهب إلى إثبات ذلك المقدار، بل يكفي إثبات أصل الظاهرة، ومما يؤيد إثبات أصل الظاهرة أيضا مذهبُ بعض النحاة في وصف أبيات مشكلة التخريج بأنها من "تخليط الأعراب"، وقد نقل ابن هشام ذلك عن أبي علي الفارسي في سياق أقرب إلى الإقرار[216]، وليس ببعيد من كلام أبي عبيدة وأبي الخطاب ما ذكره الجاحظ في معنى قولهم: "أسمح من لافظة"، قال: "والمثل إنّما يلفظ به رجل من الأعراب، وليس الأعرابيّ بقدوة إلّا في الجر والنصب والرفع وفي الأسماء، وأمّا غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب"[217]، ويؤيد ما سبق أيضا أن تفاوت الأعراب في معرفة اللغة كان مما لحظه السمّاعون من العلماء، قال أبو حاتم: "سمعت الكسائي يقول: رأيت بالبادية أعرابيين:

[212] – للتوسّع في أحوال أعراب الرواية، يُنظر: العبسي، أعراب الرواية اللغوية وتثقيف السليقة.

[213] – الزجاجي، مجالس العلماء: 129/1.

[214] – أصل هذه الفكرة ونصوصها أفدته من المزيني، ينظر: المزيني، قضية الاحتجاج للنحو واللغة: ١٠–١١.

[215] – أبو عبيدة، شرح نقائض جرير والفرزدق: 1103/3.

[216] – يُنظر: ابن هشام، مغني اللبيب: 441/2.

[217] – الجاحظ، الحيوان: 331/2.

أحدهما أسود والآخر أحمر، فسألت الأسود فلم أجد عنده شيئا، وسألت الأحمر فكأنما يأخذ العلم من شاربه"[218].

وإذا كان شأن الأعراب الخاصة التسليم بفضل علماء العربية والتتلمذ لهم، فمن الأعراب العامّة مَن كان أقرب إلى النُفرة منهم، وكانوا لهم خصوما، وبيان ذلك أن ذلك الأعرابي يرى نفسه مالك العربية الذي يحتاج أصحاب النحو إلى كلامه، ويرحلون إلى البادية لتدوين كلام أهلها، لكنّ المفارقة أنّ يرى الأعرابي ناحِيًا يتكلّم في ملكيته الخاصة، فيثبت لنفسه ملكية أخرى لا يستطيع الأعرابي أن يجاريه فيها، وقد لا يستطيع أن يفهمه أصلا، ويزيد الأعرابيّ حيرةً أن كثيرا من أولئك النحاة موالٍ، لا من أقحاح العرب، بل قد يصل أمر أولئك العلماء إلى تخطئة الأعرابي أو لَمز فصاحته، وذلك أن أصحاب العربية قد تراكم لديهم من عامة كلام العرب ما يفوق ما لدى الأعرابي الفرد، وقد مكّنهم ذلك التراكم من "القياس" وما ينجم عنه من التصويب والتخطئة، ومن المرويّ عن أبي عمرو بن العلاء أنه "سأل أبا خيرة عن قولهم: استأصل الله عرقاتهم، فنصب أبو خيرة التاء من "عرقاتهم"، فقال له أبو عمرو: هيهات يا أبا خيرة! لانَ جلدك"[219].

ولتلك النفرة تكرّر هجاء أعرابٍ للنحاة، فوصفوهم بالمستعربين والمتكلّفين وأصحاب النحو المبتدع والمحتالين لمنطقهم النحوي بالتعليلات، مؤكّدين أن الطبع والسليقة مقصور عليهم، وأن نحو الأعراب فطرة ونحو النحاة صنعة، وسخروا من كثرة ترديد النحاة لزيد، ومن ضربه أبدا والتحريش بينه وبين عبد الله، ومن المشهور في ذلك قول أعرابيّ:

ولستُ بنحويٍّ يلوكُ لسانَهُ

ولكن سَليقيٌّ أَقُولُ فَأُعربُ[220]

وقال أعرابي في حلقة أبي زيد الأنصاري:

لَستُ للنَّحوِ جِئْتُكُم

لا ولا فيهِ أرغَبُ

أنا ما لي ولامرِئ

أبدَ الدَّهرِ يُضرَبُ

خَلِّ زَيدًا لِشَأنِهِ

حَيثُ ما شاءَ يَذهَبُ[221]

ومن أخبار الأعراب أنه "وقف أعرابي على مجلس الأخفش، فسمع كلامهم في النحو، فحار وعجب وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ قال: أراكم تتكلّمون بكلامنا في كلامنا بما ليس في كلامنا"[222]، ثم أنشد الأخفش أبياتا في ذلك وأولها:

ماذا لقيتُ مِن المُستعربينَ ومِن

تأسيسِ نحوِهم هذا الذي ابتدعوا

إن قلتُ قافيةً فيما يكونُ لها

معنى يخالفُ ما قاسوا وما صنعوا

معنى يخالفُ ما قاسوا وما صنعوا

معنى يخالفُ ما قاسوا وما صنعوا

[218] – القفطي، إنباه الرواة: 273/2.

[219] – الأنباري، نزهة الألباء: 80، القفطي، إنباه الرواة: 42/2.

[220] – الخطابي، غريب الحديث: 59/3.

[221] – السيرافي، أخبار النحويين البصريين: 43-44.

[222] – القفطي، إنباه الرواة: 42/2.

وحرّشوا بين عبدِ الله واجتهدوا

وبين زيدٍ فطالَ الضَّربُ والوجعُ

إني نشأتُ بأرضٍ لا تشبُّ بها

نارُ المجوسِ ولا تُبنى بها البيعُ

وفي القصيدة طول، ومما جاء فيها أيضا:

كم بينَ قومٍ قد احتالوا لمنطقهم

وآخرينَ على إعرابهم طُبعوا[223]

والأبيات لعمار الكلبي اليربوعي التميمي، وهو شاعر من أحفاد جرير، سكن بادية البصرة، وكان يفد على العباسيين فيجزلون صلته، وقد عِيب عليه بيت من شعره، فامتعض وهجا النحويين، وبيته المعيب:

بانتْ نعيمةُ والدنيا مفرّقةٌ

وحالَ من دونها غيرانُ مزعوجُ

قيل له: "لا يقال: مزعوج، إنما يقال: مزعَج"[224].

ومن هؤلاء الأعراب أبو الزهراء من بني تميم، فقد جلس في مجلس أبي حمّاد الخيّاط، فخاضوا في النحو يذكرون الرؤاسي والكسائي وأبا زيد، وجعل ينظر، يفقه الكلام ولا يفهم التأويل، فقلنا له: ما تقول يا أبا الزهراء؟ فقال: يا ابن أخي، إن كلامكم هذا لا يسدّ عوزا مما تتعلمونه له، فقال أبو الحسن: إنّ بهذا تعرف العربُ صوابها من خطئها، فقال له: ثكلت وأثكلت! وهل تخطيء العرب؟ قال: بلى، قال: على أولئك لعنة الله وعلى الذين أُعتقوا مثلك! قال سويد: وكنت أحدثهم سنا، جُعلتُ فداك، وأنا رجل من بني شيبان وربيعة، ما تعلم أنّا على مثل الذي أنت عليه من الإنكار عليهم، فقال أبياتا أولها:

يُسائلني بيّاعُ تمرٍ وجردقٍ

ومازجُ أبوالٍ له في إنائهِ

عن الرفعِ بعد الخفضِ لا زال خافضا

ونصبٍ وجزمٍ صيغَ من سوءِ رائهِ

فقالَ بهذا يُعرف النحو كلُّهُ

يرى أنني في العجمِ من نظرائهِ

فأما تميمٌ أو سليمٌ وعامرٌ

ومَن حلَّ غمر الضال أو في إزائهِ

ففيهم وعنهم يُؤثر العلمُ كلُّهُ

ودَعْ عنكَ مَن لا يهتدي لخطائهِ[225]

نتائج البحث:

تعددت دوافع تعلم العربية في بواكير الحضارة الإسلامية، وتتمثل في النقاط الآتية:

1- كان من دوافع تعلّم العربية مكانتها القومية، وقد ارتبط ذلك بتشكّل الهوية الدينية الجديدة ومكانة العربية في تلك الهوية.

2- كان من دوافع تعلّم العربية أهميتها الدينية، بل إن أقدم الآثار الحاثّة على تعلم العربية ارتبطت بأهميتها الدينية عامة وقراءة القرآن خاصة، وقد كانت تلك الآثار عن الصحابة.

[223] – يُنظر: القفطي، إنباه الرواة: 42/2.

[224] – يُنظر: ابن جني، الخصائص: 240/1، ياقوت، معجم الأدباء: 1595/4.

[225] – ابن عبد ربه، العقد الفريد: 84/4.

3- كان من دوافع تعلّم العربية ضرورتها بالنسبة إلى جميع العلوم في الحضارة العربية الإسلامية، ولا سيما العلوم الدينية.

4- كان من دوافع تعلّم العربية تقديرها الاجتماعي، وقد تواترت الآثار عن أعيان العرب من قادة وعلماء وحكماء وقضاة وفقهاء في فضيلة الكلام المعرَب وسموِّ مكانة صاحبه، وفي قُبح اللحن وانحطاط مكانة مقترفه، وكانت العربية المعربة فاصلا طبقيا بين النخبة ومن دونهم من العامة.

5- كان من دوافع تعلّم العربية ما تمنحه المعرفة اللغوية من فرصة مهنية، وقد كانت المهنة الأكثر شيوعا بين أصحاب العربية التأديب والكِتابة ثم الوراقة، كما دفع النخاسون الجواري للعلم والأدب بغية تجويد بضاعتهم.

6- كان من دوافع تعلّم العربية طبيعتها المعيارية، وذلك أن المستوى المعياري تألّف من مجموع اللهجات العربية، وهذا المستوى لم يكن لغة سليقة لأحد، كما أنه مستوى ثري يجمع عامة اللهجات العربية.

المراجع:

[1] ابن الأبّار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي): إعتاب الكُتّاب، تحقيق: د. صالح الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1961م، ط1.

[2] الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد): الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1994م، ط1.

[3] ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم): عيون الأنباء، تحقيق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م، (د.ط).

[4] الأنباري (أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد): نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985، ط3.

[5] ابن الأنباري (أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد):

[6] الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م، (د.ط).

[7] إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزوجل، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1971م، (د.ط).

[8] بارتولد (فاسيلي فلاديميروفتش):

[9] تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة: حمزة طاهر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2013م، ط1.

[10] البخاري (محمد بن إسماعيل):

[11] الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1989م، ط1.

[12] البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت الخطيب):

[13] تاريخ بغداد، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ط1.

[14] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، 1989م، (د.ط).

[15] البغدادي (عبد القادر بن عمر):

[16] خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط4.

[17] بلّا (د. شارل):

[18] الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية، دمشق، 1961م، (د.ط).

[19] تاريخ اللغة والآداب العربية، تعريب: رفيق ابن وناس، صالح حيزوم، الطيب العشاش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ط1.

[20] البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر):

[21] أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، 1996م، ط1.

[22] بلاشير:

[23] تاريخ الأدب العربي، ترجمة: د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، 1984م، ط2.

[24] القرآن–نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره، تعريب: رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974م، ط1.

[25] بلوم (جونثان):

[26] قصة الورق– تاريخ الورق في العالم الإسلامي قبل ظهور الطباعة، ترجمة: د. أحمد العدوي، دار أدب، الرياض، 2021م، ط1.

[27] البونسي (إبراهيم بن أبي الحسن):

[28] كنز الكُتاب ومنتخب الآداب، تحقيق: حياة قارة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2004م، ط1.

[29] البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين):

[30] شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي حامد، إشراف: مختار الندوي، مكتبة الرشد، الرياض، 2003م، ط1.

[31] مناقب الشافعي، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1970م، ط1.

[32] الترمذي (محمد بن عيسى بن سَوْرة):

[33] سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975م، ط2.

[34] التنوخي (المفضل بن محمد بن مسعر):

[35] تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 1992م، ط2.

[36] التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد بن العباس):

[37] المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، 1992م، ط2.

[38] البصائر والذخائر، تحقيق: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، 1988م، ط1.

[39] ابن تيمية (أبو العباس أحمد بن عبد الحليم):

[40] مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، 2005م، ط3.

[41] الثعالبي (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل):

[42] فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1938م، ط1.

[43] يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: د. مفيد محمد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ط1.

[44] ثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى):

[45] كتاب الفصيح، تحقيق: د. عاطف مدكور، دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، (د.ط).

[46] الجاحظ (عمرو بن بحر):

[47] البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998م، ط7.

[48] الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1996م، ط2.

[49] رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م، (د.ط).

[50] المحاسن والأضداد، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ط2.

[51] جِب (هاملتون):

[52] دراسات في حضارة الإسلام، تحرير: ستانفورد شو، وليم بُولك، ترجمة: د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم، د. محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م، ط3.

[53] الجمحي (محمد بن سلام):

[54] طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، 1980م، (د.ط).

[55] ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني):

[56] الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1385هـ، ط4.

[57] الجَهْشياري (محمد بن عبدوس):

[58] الوزراء والكُتّاب، حقّقه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1938م، ط1.

[59] ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي):

[60] المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 م، ط1.

[61] ابن أبي حاتم (أبو محمد عبد الرحمن بن محمد):

[62] آداب الشافعي ومناقبه، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ط1.

[63] حتّي (د. فيليب)، جرجي (د. إدوارد)، جبّور (د. جبرائيل):

[64] تاريخ العرب (مطوّل)، دار الكشاف، بيروت، 1950م، (د.ط).

[65] حريتاني (د. سليمان):

[66] الجواري والقيان، وظاهرة انتشار أندية ومنازل المقينين في المجتمع العربي الإسلامي، دار الحصاد، دمشق، 1997م، ط1.

[67] خالدوف:

[68] اللغة العربية، ضمن كتاب "دراسات في تاريخ الثقافة العربية، القرون 5-15"، دار التقدم، موسكو، 1982م، (د.ط).

[69] الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد):

[70] غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر، دمشق، 1982م، ط1.

[71] ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد):

[72] ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر بيروت، 1988م، ط2.

[73] ابن خلكان (أحمد بن محمد بن إبراهيم):

[74] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1973م.

[75] ابن درستويه (أبو محمد عبد الله بن جعفر):

[76] تصحيح الفصيح وشرحه، تحقيق: د. محمد بدوي المختون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2004م، (د.ط).

[77] كتاب الكُتّاب، تحقيق: الأب لويس شيخو، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1931م، (د.ط).

[78] الدريسي (د. وفاء):

[79] الجواري والغلمان في الثقافة الإسلامية "مقاربة جندرية"، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، الرباط، 2016م، ط1.

[80] الدوري (د. عبد العزيز):

[81] التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1968م، ط3.

[82] الذهبي (محمد بن أحمد):

[83] سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة بإشراف: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م، ط3.

[84] الراغب الأصبهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد):

[85] محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، 1420هـ، ط1.

[86] ريسلر (جاك):

[87] الحضارة العربية، تعريب: د. خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت–باريس، 1993م، ط1.

[88] الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي):

[89] طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1973م، ط2.

[90] لحن العوام، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2010، ط2.

[91] الزجاجي (عبد الرحمن بن إسحاق):

[92] الإيضاح في علل النحو، تحقيق: د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، 1986م، ط5.

[93] مجالس العلماء، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، دار الرفاعي–الرياض، 1983م، ط2.

[94] الزركشي (محمد بن عبد الله بدر الدين):

[95] البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية –عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، 1957م، ط1.

[96] أبو زيد (سعيد بن أوس الأنصاري):

[97] النوادر في اللغة، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت، 1981م، ط1.

[98] سحنون (محمد):

[99] آداب المعلمين، تحقيق: د. محمد عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ط2.

[100] ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع):

[101] الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ط1.

[102] سعيد (د. خير الله):

[103] موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2011م، ط1.

[104] ابن السكيت (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق):

[105] إصلاح المنطق، تحقيق: أحمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، 1987م، ط4.

[106] السيرافي (الحسن بن عبد الله بن المرزبان):

[107] أخبار النحويين البصريين، تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحلبي، القاهرة، 1955م، ط1.

[108] السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر):

[109] بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1964م، ط1.

[110] المزهر، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998، ط1.

[111] شولر (غريغور):

[112] الكتابة والشفوية في بدايات الإسلام، ترجمة: رشيد بازي، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، 2016م، ط1.

[113] ابن أبي شيبة (عبد الله بن محمد):

[114] المصنف، تحقيق: د. سعد بن ناصر الشثري، دار كنوز إشبيليا، الرياض، 2015م، ط1.

[115] الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك):

[116] الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م، (د.ط).
[117] الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى):
[118] أدب الكُتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية–مصر، المكتبة العربية–بغداد، 1341هـ، (د.ط).
[119] الأوراق، تحقيق: ج. هيورث. دن، شركة أمل، القاهرة، 1425هـ.
[120] أبو الطيب (عبد الواحد بن علي):
[121] مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م، (د.ط).
[122] الطبري (محمد بن جرير بن يزيد):
[123] تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، دار التراث، بيروت، 1387هـ، ط2.
[124] ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله):
[125] أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذمّ العي وتعليم الإعراب، تحقيق: سمير حلبي، دارس الصحابة، طنطا، 1989م، ط1.
[126] جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ، ط1.
[127] عبد التواب (د. رمضان):
[128] فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1999م، ط6.
[129] ابن عبد ربه (أحمد بن محمد بن عبد ربه):
[130] العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ، ط1.
[131] عبد الرزاق (أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني):
[132] المصنّف، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، دار التأصيل، القاهرة، 2015م، ط1.
[133] عبد النور (جبّور):
[134] الجواري، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، 1947م، (د.ط).
[135] العبسي (د. خالد عبد الحليم):
[136] أعراب الرواية اللغوية وتثقيف السليقة، مجلة الجامعة الوطنية، صنعاء، العدد: 8، يونيو 2019م.
[137] مبدأ الانتظامية في النحو العربي، نور حوران للدراسات والنشر، سوريا، 2020م، ط1.
[138] في العوامل الخارجية لنشأة علوم اللغة والنحو –عامل المهنة والتكسّب أنموذجا، مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية، المجلد 5، العدد 2، ديسمبر، 2023م.
[139] أبو عبيد (القاسم بن سلام):
[140] غريب الحديث، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد– الدكن، 1946م، ط1.
[141] فضائل القرآن، تحقيق: مروان العطية، محسن خرابة، وفاء تقي الدين، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، 1995م، ط1.
[142] أبو عبيدة (معمر بن المثنى):
[143] شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق: محمد إبراهيم حور ووليد محمود خالص، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1998م، ط2.
[144] ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله):
[145] تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها مِن الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995م، ط1.
[146] غروندلر (بياتريس):
[147] نشأة الكتاب العربي، ترجمة: د. إبراهيم الفريح، دار معنى، الرياض، 2022م، ط1.
[148] الفارابي (أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم):

[149] ديوان الأدب، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 2003م، ط2.
[150] الفراء (يحيى بن زياد بن عبد الله):
[151] معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، 1980م، ط1.
[152] فرستيغ (كيس):
[153] أعلام الفكر اللغوي (ج3)، ترجمة: د. أحمد شاكر الكلابي، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، 2007م، ط1.
[154] اللغة العربية- تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة: محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م، ط1.
[155] فيشر (فولفديترتش):
[156] دراسات في العربية: أصولها - مراحلها التاريخية - بنيتها - لهجاتها، علاقاتها بأخواتها الساميات لمجموعة من المستشرقين، ترجمة: سعيد بحيري، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005، ط1.
[157] قاري (لطف الله):
[158] الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي، دار الرفاعي، الرياض، 1983م، ط2.
[159] ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم الدينوري):
[160] أدب الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، مصر، 1963م، ط4.
[161] الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ، ط1.
[162] قدامة (أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي):
[163] جواهر الألفاظ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ط1.
[164] الخراج وصناعة الكِتابة، تحقيق: د. محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، 1981م، ط1.
[165] القفطي (أبو الحسن علي بن يوسف):
[166] إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، 1982م، ط1.
[167] كاهن (كلود):
[168] تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة: د. بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، 1972م، ط1.
[169] كراتشكوفسكي (أغناطيوس):
[170] دراسات في تاريخ الأدب العربي، موسكو، دار النشر "علم"، 1965م، (د.ط).
[171] الكلبي (هشام بن محمد بن السائب):
[172] مثالب العرب، دراسة وتحقيق: د. جاسم الدرويش، د. سليمة كاظم حسن، دار تموز، دمشق، 2015م، ط1.
[173] ماكنتوش-سميث (تيم):
[174] عرب - 3000 سنة من تاريخ شعوب وقبائل وإمبراطوريات، ترجمة: عامر شيخوني، جسور للترجمة والنشر، بيروت، 2023م، ط1.
[175] المرتضى (علي بن حسين الموسوي):
[176] غرر الفوائد ودرر القلائد (أمالي المرتضى)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954م، ط1.
[177] ابن المرزبان (محمد بن سهل):
[178] الألفاظ، الكتابة والتعبير، تحقيق: د. حامد صادق قنيبي، دار البشير، عمّان، 1991م، ط1.
[179] المرزباني (محمد بن عمران):
[180] معجم الشعراء، بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م، ط2.
[181] الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق وتقديم: محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ط1.
[182] المزيني (د. حمزة بن قبلان):

[183] قضية الاحتجاج للنحو واللغة، مجلة جامعة الملك سعود، الرياض، الآداب: 1، المجلد 10، 1998م.
[184] المقرئ (أبو طاهر، عبد الواحد بن عمر):
[185] أخبار النحويين، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1989م، ط1.
[186] معمر (معمر بن راشد):
[187] الجامع، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، باكستان، 1403هـ، ط2.
[188] ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي):
[189] لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ، ط3.
[190] ابن النحاس (أحمد بن محمد بن إسماعيل):
[191] صناعة الكُتّاب، تحقيق: د. بدر أحمد ضيف، دار العلوم العربية، بيروت، 1990م، ط1.
[192] النديم (محمد بن إسحاق بن محمد):
[193] الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، 1997م، ط2.
[194] نكلسن (رينولد):
[195] تاريخ الأدب العباسي، ترجمة: د. صفاء خلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد، 1967م، (د.ط).
[196] النملة (علي بن إبراهيم):
[197] الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1995م، (د.ط).
[198] ابن هشام (عبد الله بن هشام الأنصاري):
[199] أوضح المسالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1992م، (د.ط).
[200] شرح قطر الندى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، (د.ط).
[201] مغني اللبيب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م، (د.ط).
[202] هِل (ي.):
[203] الحضارة العربية، ترجمة: د. إبراهيم أحمد العدوي، مراجعة: د. حسين مؤنس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1974م، (د.ط).
[204] الهمذاني (عبد الرحمن بن عيسى):
[205] الألفاظ الكُتّابية في علم العربية، تحقيق: موفق صالح الشيخ، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، 2011م، ط1.
[206] الوردي (د. علي):
[207] أسطورة الأدب الرفيع، دار كوفان، لندن، 1994م، ط1.
[208] ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموي):
[209] معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ط1.
[210] اليغموري (أبو المحاسن يوسف بن أحمد بن محمود):
[211] نور القبس المختصر من المقتبس، تحقيق: رودلف زلهايم، فرانتس شتاينر، فيسبادن، 1964م.